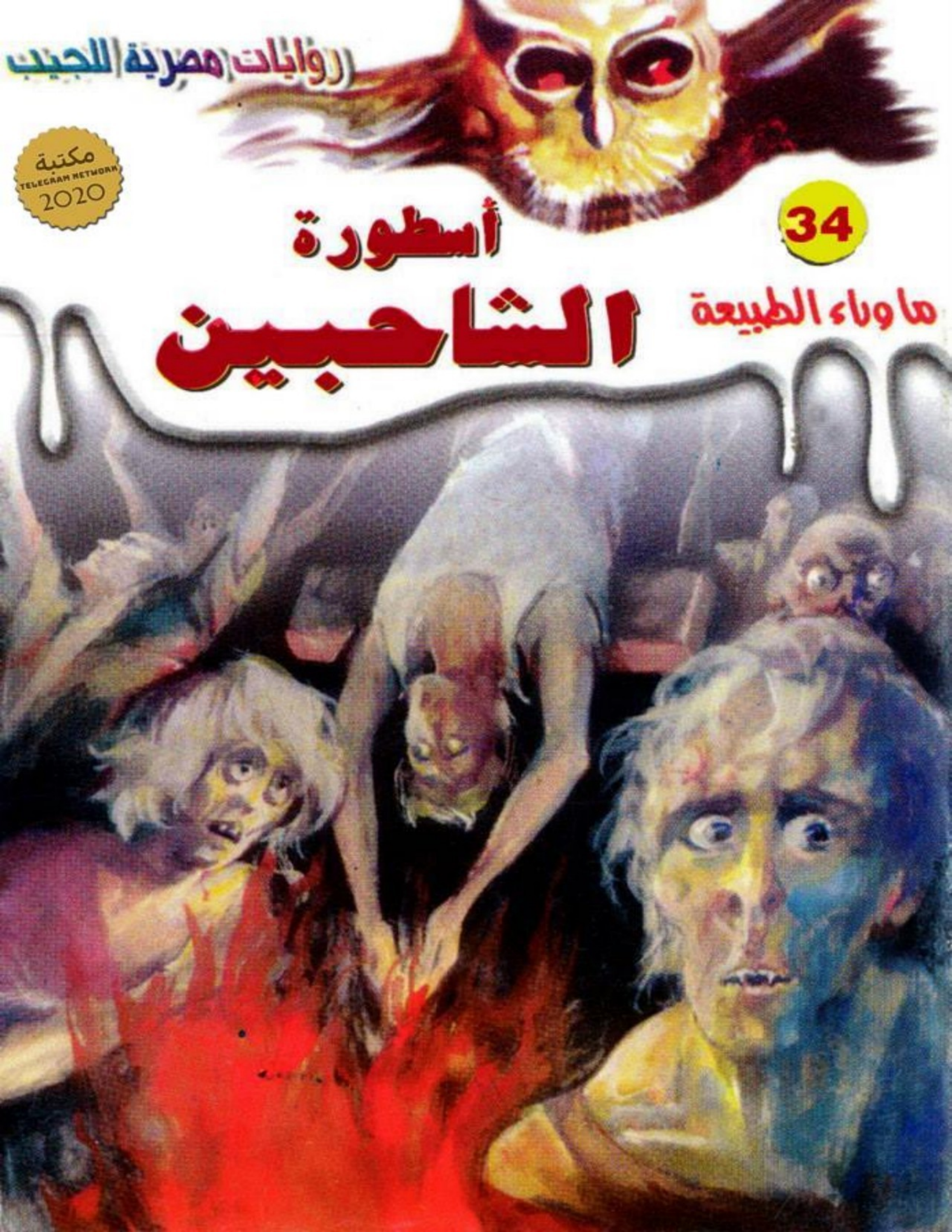

روايات مصرية للجيب
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020
34
أسطورة
الشاحبين
ما وراء الطبيعة


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

في ضوء المشعل استطعت أن أرى الحقيقة..

لقد رأيت كثيرًا من الجثث الممددة في توابيت من الخشب الثمين، والمبطنة بالحرير.. ورأيت الدم على شفاه بعض تلك الجثث.. ورأيت البشرة الشاحبة والنابين البارزين..

رأيت ما يكفي من الجثث في حياتي كي أعرف مصاص الدماء حين أراه.. ولا أستطيع أن أفخر بأنني غرست أوتادًا كثيرة في صدور هؤلاء، لكني بالتأكيد أستطيع أن أفعل هذا بنجاح..

لشد ما تبدل د. (وينسلو)!

إنه الآن (غير ميت).. وهي كلمة لا تعني أبدًا أنه حي.. لكي تفهم الفارق الباهت بين (حي) و(غير ميت) يجب أن تكون مصاص دماء..

وقال لي (مايكل) بصوت مبحوح:

ـ «هل تغرس الوتد؟»

نظرت له وابتلعت ريقي..

كلما حسبت أنني أعرف كل شيء عن مصاصي الدماء؛ كلما أدركت مبلغ سذاجتي..

لقد كان تعاملي مع تلكم المخلوقات الطيفية سلسلة لا تنتهي من الأغلاط الفادحة، ولا أقول الفاحشة.. حماقات لا أول لها ولا آخر..

وتذكرت قصة الشاحبين..
وارتجف الوتد في يدي..
أحقا لم أحكها لكم بعد؟
غريب!
إذن هلموا أحكها لكم بسرعة وقبل أن ينهض مصاص الدماء من غفوته.. وقبل أن ينادي المنادون يعلنون ملكوت الظلام...
كانت القصة كما يلي..

❋ ❋ ❋

تـمـهـيـد

د. رفعت إسماعيل

ساد تعبير (مصاصي دماء هامر) بين مشاهدي أفلام الرعب، بسبب أفلام شركة (هامر) البريطانية التي قدمت لنا أهم أفلامهم.. وفيها يبدو مصاصو الدماء فاغري الأفواه عن أنيابهم، يرتدون عباءات سوداء مبطنة بالأحمر، ولهم لون شاحب مخيف.. وكلهم يموتون عند رؤية ضوء الشمس والصلبان وعند شمّ رائحة الثوم..

كل هذا جميل.. لكنه غير صحيح على الإطلاق!

* * *

(رومانيا) من جديد؟

تسألون لماذا (رومانيا) من جديد؟

سؤال غريب وإجابة أغرب حتمًا.. أنا لم أر (رومانيا) منذ عشر سنوات تقريبًا.. ولي فيها صديق حميم هو (جوستاف نيكولسكو) الصحفي الروماني الشاب شديد الذكاء والمرح... كما أنّ لي فيها قصة رهيبة مع المذءوب.. إنني أحبها لأنهّا أول قصة حكيتها لكم..

إن (رومانيا) بلد غريب تختلط فيه التأثيرات الأوروبية والتركية واليونانية، وبه أساطير يشيب لهولها الولدان كما يقولون..

إن ما نُسمّيه نحن (رومانيا) لهو خليط من أقاليم عدة مثل: (داتشيا) - أو (داخيا) - و(والاشيا) و(الكربات) و(مولدافيا).. وبالطبع (ترانسلفانيا) الرهيبة التي صارت مزارًا سياحيًا للسياح الراغبين في رؤية قصر (فلاد المخوزق) كما يسمونه[1]، وذلك لأنّه كان يهوى التهام طعامه وهو ينعم برؤية أعدائه الأتراك فوق الخوازيق.. وقد أطلق عليه الأهالي اسم (دراكيولا).. أي (الشيطاني)..

ويقال إن (دراكيولا) مشتقة من لفظة (دراجول) أي (التنين) لأن هذا هو شعاره الإقطاعي..

تقول الأساطير الرومانية إن (جانب النجوم) هو عالم مواز لنا، يمرح فيه

مصاصو الدماء والمذءوبون... لكن هذا العالم - كأي شيء في الواقع - مثقوب.. وهذا الثقب يسمح بمرور مصاص دماء أو مذءوب من آن لآخر؟

وتسألون لماذا (رومانيا) من جديد؟

لأنني أنا (رفعت إسماعيل).. ومن المستحيل أن أظل بمنأى عن هذا الموضع أكثر من عشرة أعوام...

❋ ❋ ❋

كما يقولون في القصص: بدأ كل شيء بخطاب وصلني من (جوستاف نيكولسكو)..

لم تنقطع المراسلات بيننا لحظة طيلة هذه السنين، وقد صار (جوستاف) رئيسًا لتحرير مجلة نسائية متوسطة الشهرة، ويبدو أن الرفيق (شاوشيسكو) كان راضيًا عنه..

إن (جوستاف) يجيد التحايل وإخفاء ارائه السياسية المناهضة للشيوعية.. والدليل على ذكائه أنهم لم يعدموه بعد..

كان الخطاب مليئًا بالمودة والظرف.. وإن لم ينس سؤاله السمج عما إذا كنت تزوجت بعد.. ألن ينسى الناس هذا الموضوع أبدًا؟!

سأتجاهل بعض الفقرات الخاصّة أو الخاصّة جدًا.. أو التي لا أريد أن يعرفها سواي والروماني.. ثم أقدم لكم هذه الفقرة:

«(رفعت).. إن مجلتى عاكفة على تقديم سلسلة من التحقيقات عن الظواهر الميتافيزيقية.. ذلك الهراء الذي تهواه أنت، والذي يروق للنساء كثيرًا.. فالنساء مولعات بالشموع التي تتحرك، وشبح الكونتيسة الذي يعبر الردهة في الواحدة صباحًا.. وكلما كان الأمر مريعًا كلما كان هذا أفضل..»

«لديَّ حشد من الخيوط يمكن البدء بأي منها.. لكني لم أرد أن أبدأ دون أن تكون معي ها هنا..»

«إنني أذكر العمل الرائع الذي قمنا به ها هنا منذ أعوام في (كرايوفسكا) مع المذءوب إياه.. وأعتقد أنّ هذا بعينه هو ما أريد أن تشاركني فيه..»

(قمت بحذف باقي الفقرة لأن بها مزاحًا سمجًا)..

«العرض هو البساطة ذاتها: ستصلك تذكرة طائرة ومعها ترتيب كامل للإقامة لمدّة شهر..»

«عندما تقبل سيأتي دور التفاصيل..»

«فكر جيدًا.. إنها سياحة مجانية لا تتاح لكثيرين.. أما أنا فسوف أربح رأيك الصائب وخبراتك.. ثم إن الرومان ينغمسون أكثر في الأحداث إذا لم يكن بطلها رومانيا.. فألحان عازف المزمار في القرية المجاورة أعذب من ألحان عازفنا..»

هذا التعبير الأخير هو طريقة رومانية لقول (الشيخ البعيد سرّه باتع) أو (زامر

الحي لا يطرب)..
كان العرض مغريًا..
إن إجازتي دانية.. وأنا لم أسافر للخارج منذ زمن..
لم لا؟ بالتأكيد أنا لا أهوى تربية العناكب في داري.. لكن منظر خيوط العنكبوت، وطبقة الغبار على الأثاث لدى عودتي من الخارج، لتبعثان حنينًا قويًا في روحي..
وهكذا...
بعد أسبوعين كنت جالسًا في الطائرة أنتظر لحظة الهبوط في مطار (بوخارست)..
وأخذت شهيقًا عميقًا، وقذفت بقطعة من اللادن في فمي، كي لا تنفجر أذناي..

حان وقت الاسترخاء.. أو العمل الشبيه بالاسترخاء..
وللمرة التريليون كنت ساذجًا.. ساذجًا...

* * *

في المطار تعرفته بصعوبة... كان قد امتلأ ووضع العوينات وبدا أكثر أناقة.. (رجل في منتصف العمر تلوح عليه آثار النعمة) كما يقولون في الروايات.. وقد دفع ضريبة النجاح من شعر رأسه المتساقط..
وحين تعرفته صحت معتذرًا وأنا ألثم خده كعادتنا وعادتهم:
- «(جوستاف)! إنك تزداد بهاء.. لم أتعرفك لأني حسبتك نهارًا مشمسًا!»

وهو تعبير مسروق من (مارك توين) لكنه أسعده كثيرًا فرد المجاملة:

- «وأنا لم أتعرفك لأني حسبتك مصيبة..»

- «هذا لطف منك..»

- «ألم تمت بعد؟»

- «كما أنّ الشيوعيين لم يشنقوك بعد.. إنها لمعجزة..»

ودس يديه في جيبي معطفه الثمين الذي تعلوه ياقة مبطنة بـ (الاستراخان) - أو هكذا أحسبه - وقال في فخر:

- «الأمور على ما يرام.. يبدو أنني أزداد فهمًا للحياة..»

وخرجنا من المطار دون إجراءات جمركية تقريبًا.. ومع مزيد من الاحترام،

برغم أن كل مفتشي الجمارك في الكون يكرهونني بشكل خاص كأنني زعيم (المافيا) الهارب، أو ملك تجارة (الهيروبين) في العالم...

وفي سيارته الـ (زاباروجيتس) الفاخرة، أشعل لنفسه سيجارًا عملاقًا وقال وهو يمسك المقود بيد واحدة:

- «ستقيم في فندق (بلويستي).. وهو فندق فاخر..»

- «هذا يسرني.. فقد سئمت الأكواخ الملاي بالبراغيث..»

ثم إنّه راح يسألني عن آخر أخباري..

قلت له إن الأمور على ما يرام.. فلم أك راغبًا في أن أسكب فوق رأسه كل هذا الخليط من أوراق (التاروت)، وكهنة

التبت، والدمى المسحورة، والعوالم الموازية.. إلى آخر هذا الهراء..

ثم إنني سألته:

- «هلا تكلمنا في الأعمال؟»

- «الأعمال؟ آه! دائمًا الأعمال.. انتظر حتى نصل إلى الفندق وهناك أعرض عليك ما لديَّ من خواطر..»

❋ ❋ ❋

جلس على الأريكة الوثيرة في حجرتي، ومد يده إلى جيبه ليخرج بعض الأوراق.. وكما توقعت، نزع عويناته ليبعد الأوراق بعيدًا إلى أبعد نقطة من مجال بصره.. إنّه قد تقدم في العمر وبدأ يُصاب بطول

النظر.. منتصف العمر.. سن النجاح الاجتماعي وطول النظر وتضخم البروستاتا والنوبات القلبيّة..»
قال لي وهو يتأمل الأوراق:
- «هي ذي بعض الخواطر كتبتها لك.. لن أثقل عليك، فأنت مرهق بعد رحلة الطائرة.. لذا سأتركها لك.. على أن تتصل بي حين تشعر بانك تميل إلى موضوع معين..»
ونهض ليضع قبعته على رأسه معلنًا انتهاء اللقاء..
ما إن انصرف حتى طوحت بفردتي حذائي، وانتزعت تلك المشنقة التي يسمونها ربطة العنق، وخلعت سترتي ثم ارتميت في الفراش كجثة غارقة.. وكان

الفضول أقوى مني، فمددت يدي إلى الأوراق أتصفحها بسرعة.. وكانت ـ حقًّا ـ حفنة من الخواطر:

١ ـ المقبرة المفتوحة دائمًا في مدفن (كلوج)...

٢ - في (مامايا) على البحر الأسود.. يسمعون الغناء ليلًا.. يبدو أنها حكاية شبيهة بـ (لورالاي) لدى الألمان.. (عرائس بحر؟).

٣ - شاب له القدرة على السفر عبر الأزمان (أو هكذا يزعم).. يقول إنّه كان محاربًا من الفرنجة.. وكان غازيًا تركيًا.. المشكلة هي أنه يملك أدلة قوية حقًّا..

٤ - عالم يزعم أنه يعرف مكان تابوت العهد المذكور في التوراة.. لكنه لن يفصح

عنه إلا مقابل بضعة ملايين من (اللايات).. لا أحد يعبأ به لكنه موضوع مثير حقًّا..
٥ - إشاعات عن فرقة من النازيين ما زالت حية بعد الحرب.. وتجول بين القرى ليلًا.. يُقال إنهم دفنوا في أثناء غارة للحلفاء وأن ما نراه هو أشباحهم...
٦ - صيدلي في (بوكوفينا) يزعم أن القرية كلها تثير ريبته.. لكنه لا يستطيع إثبات كلامه..
٧- معتوه في (كونستاتا) يتصل بشكل منتظم بسكان (زحل).. وهم كالعادة ينوون غزو الأرض.. كل هذا جميل، لكنّ عنده سبيكة من معدن يقسم الجيولوجيون بقبور أمهاتهم إنّه غير أرضي..

كانت كل نقطة مكتوبة في ورقة بعينها بخط جميل.. وقد أثار كل هذا شغفي.. لكنّ سني لا تسمح لي بالبحث عن الأفكار المفزعة أو التي توحي بمتاعب قادمة لا ريب فيها...

مثلًا بالنسبة للقبر المفتوح.. أنا لا أحب القبور المفتوحة كثيرًا كما تعلمون.. أمّا عن (لورالاي) فأعتقد أنها كلام فارغ كالعادة..

المسافر عبر الأزمان يذكرني بـ (هن - تشو - كان)... وأعتقد أن كاهنًا أخيرًا واحدًا يكفي المرء طيلة حياته..

موضوع (تابوت العهد) محبب لدى اليهود، وأوشك أن أشم رائحة عبرانية

واضحة في الموضوع.. رائحة تجعلني أتراجع..
النازيون مرعبون بما يكفي وهم أحياء.. فكيف بأشباحهم؟
أما معتوه (كونستاتا) فمن المؤكد أنه معتوه..
إذن يبقى أمامنا أخونا الصيدلي الروماني المرتاب..
طبعًا لن يسفر الأمر إلا عن حالة (بارانويا) متقدمة، من طراز (إنهم يكرهونني).. وهذا يناسبني..
وأخيرا غلبني النعاس فنمت حيث أنا، والأوراق في يدي.. وحين صحوت كان ضوء النهار يفعم الحجرة..

طلبت رقم الهاتف الذي أعطانيه (جوستاف).. فسمعت صوت سكرتيرة تسأل بالرومانية عن شيء ما.. غالبًا تسأل من أنا؟

وأخيرًا سمعت صوت (جوستاف) المرح يسألني:

- «هيه؟ علام استقررت؟»

قلت وانا اتثاءب:

- «هاااه.. على الصيدلي المرتاب..»

- «غريب! حسبتك متحمسًا لفرقة النازيين الجوالة..»

- «لم تعد صحتي تتحمل الأشباح النازية يا (جوستاف)..»

ضحك طويلًا ضحكته المجلجلة الرنانة.. ثم قال:

- «ليكن.. أعد حاجياتك لأننا راحلان إلى (بوكوفينا)..»

- «هل ستصحبني؟ ظننت مشغولياتك..»

- «إن إجازتي تبدأ بعد يومين.. وأعتقد أن (بوكوفينا) مكان مناسب لقضاء وقت طيب.. ومنها إلى قرية (هالماجيو)..»

- «والتفاصيل؟»

- «ستعرف كل شيء في الطريق.. كل شيء..»..

* * *

حكاية الصيدلي المرتاب

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال الصيدلي (يوليان بودسكو):
بالتأكيد توجد أمور غريبة في (هالماجيو)..
توجد أشياء معينة من التي لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلًا، حينما تتأكد من أن الأطفال قد ناموا، وحينما تستوثق من أن أبوابك موصدة، وأن الكلب لا ينبح في الجرن لأنّه يشعر بشيء غريب..
أمس صارحت القس الأب (كونستانتين) بهواجسي، فهز رأسه الأشيب عدة مرات، ولم ينصحني سوى بإغلاق بابي ليلًا.. والصلاة..

وهأنذا أوصدت بابي.. وأحضرت الكتاب المقدس ورحت أقرأ منه، داعيًا الرب أن يأتي الصباح سريعًا..

* * *

ربما بدأ كل شيء في (مايو) الماضي..
ربما بدأ قبل هذا لكني لست واثقًا من شيء.
إن (الكسندر) صبي ذكي لكنه شيطان صغير، من النوع الذي لا يكف عن جذب ذيول القطط وتهشيم زجاج الجيران..
إنه أشقر الشعر له وجه ملوث بالحلوى والطين.. وله سنان ناقصتان تجعلانه يبدو كشيطان زنيم..

لكن القرية كلها كانت تحب (الكسندر).. حتى وهم يشكون لأبيه (مازورسكو) تهشيمه لزجاج النافذة، أو قذفه أبناءهم بالوحل، أو سرقة تفاحة، أو ثقب إطار الدراجة التي تركها أحدهم أمام بابه.. حتى وهم يشكون لأبيه كانوا يحبونه..

وفي صباح (مايو) المذكور قابلته وهو عائد من القرية.. جاء متجرى ليطلب بعض حلوى النعناع..

- «كل هذه الحلوى ستفسد أسنانك يا (ألكسندر).. ولسوف تغدو بلا أسنان كالعلقة...»

قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعد أقراص النعناع، ثم أضعها له في قرطاس ورقي كبير..

قال لي وهو يمتص قرصه الأول:
- «النعناع لا يتلف الأسنان.. هل لديك ماء بارد؟»

فالصباح كما قلت لك صباح من شهر (مايو).. حيث القيظ يجثم على الأنفاس، والطبيعة كلها تبدو ككلب لاهث يرقد في الظل مخرجًا لسانه في استرحام..

أحضرت له كوبًا من الماء من الدورق الذي يسبح فيه مكعبان من الثلج - ما أحلى الماء البارد بعد حلوى النعناع! - سمعته يشهق من النشوة الحارقة التي غمرت حلقه.. وقال في صوت مبحوح:

- «هاآآآآآه! ما أجمله!»

ووضع الكوب على (الكاونتر) أمامي..

وتوقعت أن ينصرف.. لكنه بدا حائرًا قليلًا.. كان يريد قول شيء لكنه لا يجد الكلمات المناسبة..

- «هل ثمّة ما تريد قوله؟»

راح يرمق الأرفف التي تعجّ بالأدوية.. ثم سألني:

- «هل أنت تفهم في جميع الأمراض؟»



قلتها له وأنا أفتح المرطبان وأعدّ أقراص النعناع ،
ثم أضعها له فى قرطاس ورقى كبير ..

هززت كتفي في عدم اكتراث:
- «لست طبيبًا.. لكني أعرف أشياء كثيرة..»
عاد يسألني وهو يهرب بعينية من نظراتي:
- «ما معنى أن يكون الواحد شاحبًا؟»
- «أشياء كثيرة.. مثلًا حين تهشّم الأكواب الملونة التي تعتز بها أمك تصير شاحبًا.. حين تنزف دمًا كثيرًا تصير شاحبًا.. حين تصاب بالأنيميا تصير شاحبًا..»
- «ما هي (الأمنيا)؟»
هنا تذكرت أن أباه جعله يترك المدرسة منذ زمن كي يعاونه في متجره.. لم أجد تعريفًا مناسبًا لـ (الأنيميا) فقلت له:

- «هي فقر الدم.. حين يكون دمك قليلًا..»

عاد يسألني:

- «وهل عندك علاج لهذه (الأمنيا)؟»

- «هل تريد علاج أحد معين؟»

هزّ رأسه.. ثم عاد يسألني بإلحاح:

- «هل عندك علاج معين لها؟»

مددت يدي إلى الرف فتناولت علبة من أقراص الحديد، ووضعتها أمامه.. فتأملها في شغف.. لكني لم أدعة يأخذها.. وقلت:

- «لن تأخذها ما لم تقل لمن؟»

ابتلع ريقه للحظة.. ثم قال بعد تردد:

- «لأبي..»

- «أبوك شاحب الوجه؟»

- «نعم.. ويخيفني كثيرًا..»

هنا تذكرت أنني لم أر الأب (مازورسكو) منذ أسابيع.. إن متجره مغلق لكنه قد عودنا على ألا نقلق حين نرى شيئًا كهذا..

فهو سكير.. ونوبات سكره تتكرر كل أربعة أشهر أو ثلاثة.. عندها يغرق في نوبة من البكاء والضحك، ثم ينهال على امرأته ضربًا ويركل ابنه مرّتين.. ثم يظل في الفراش لمدّة أسبوع.. بعدها يعود كل شيء إلى حالته الأصلية..

- «و يخيفك؟ لا أفهم..»

بدت الحيرة في عينيه الخضراوين.. وقال بارتباك (كأنه لم يرد أن يتكلم بهذه الكثرة):

- «نعم.. يجلس وحيدًا في غرفة مقفلة.. والكلام كله من وراء الباب.. لكني رأيت وجهه.. وكان شاحبًا.. شاحبًا كليمونة..»

- «وأمك.. ألم تسألها؟»
- «هي أيضًا لا تفهم.. تقول إن أبي مريض جدًا..»
- «ودكتور (ميخائيل).. ألم يزر البيت؟»
- «نعم.. فأبي يرفض أن يراه الأطباء..»
- «وهل يخرج أبوك أحيانًا؟»
- «لا.. إنّه جالس في هذه الحجرة طيلة الوقت. لا يستحم ولا يبدل ثيابه حتى صارت رائحة الحجرة شنيعة.. أمي تحضر له الطعام.. ووعاء يقضي فيه حاجته.. وتأخذ الوعاء صباح كل يوم لتفرغه وتنظفه..»

شعرت بالهلع.. من المستحيل أن يختلق الصبي قصة كهذه.. مستحيل.. إن شيئًا ليس على ما يرام يحدث في هذا البيت.

ماذا أصاب التاجر الروماني البسيط؟
سمعت أنّ هذه الأشياء تحدث لمرضى الاكتئاب.. كما أنها تحدث لمرضى الجذام الذين لا يحبون أن يراهم الناس يتآكلون.. كما أنّ مرضى الضمور Consumption كانوا يفعلون شيئًا كهذا فيما مضى.. قبل أن نعرف أن الـ Consumption هو الدرن.. ونعرف أن له علاجًا..
قلت للصغير في حماس:
- «سآتي معك الآن لنرى أباك..»
- «لن يحبّ هذا يا دكتور.. فهو..»
- «لا مجال للمناقشة.. لحظة حتى أغلق المتجر..»

* * *

كان المشوار مرهقًا في الحر.. فأنا بدين كخنزير لا أملك أية لياقة بدنية.. وقد راح العرق يغمر جسدي ويبلل حاجبي وينساب على عيني حارقًا لاذعًا..

إن دار (الكسندر) جميلة حقًّا.. ويقال إن الأب بناها من أرباح القمار في شبابه.. ويبدو ـ إن كان هذا صوابًا ـ أن دارًا ساحرة كهذه يمكن الحصول عليها من شيء كريه كالقمار..

قرعنا الباب ففتحت لنا (ماريا) الباب..

وهي ـ في الخمسين من عمرها ـ تبدو كأنها في الثمانين.. كنا نتصور أن فرصتها

للإنجاب قد فاتت، لكنّها فاجأتنا بصبي أشقر جميل هو (ألكسندر)..

ما إن رأتني حتى اتسعت عيناها ذعرًا.. لقد فهمت سر مجيئي.. فقلت لها:

- «هل (فيتور) في غرفته؟»

ابتلعت ريقها ولم تقل شيئًا.. فقط أفسحت لي طريق الدخول وهي ترمق الصبي بنظرة لا تحتاج إلى مترجم.. نظرة من نوع (هكذا ـ إذن ـ أيها ـ القرد ـ الصغير)..

ودخلت إلى الدار.

حقا كان الصبي محقًا.. إن رائحة البيت لا تطاق..

هي ذي غرفة موصدة.. المرأة تقف جواري وترمقني بوجهها المجعد الشبيه بتفاحة ذابلة، وتقول:

ـ «هو هنا.. حاول الا تلح على رؤيته.. إنّه ضيق الخلق..»
مددت يدًا مترددة وقرعت الباب..
فسمعت من يزمجر بالداخل..
قلت في صوت مبحوح:
- «(فيتور).. هل ثمّة مشكلة؟»
عاد الصوت يزمجر:
ـ «من المتكلم؟»
ـ «أنا الصيدلي.. أنا (بودسكو).. صديقك..»
قال بصوت كخوار الثور:
ـ «انصرف يا (يوليان).. أنا لن أفتح الباب..»
- «هل ثمّة مشكلة؟»
ـ «قلت لك انصرف...»

نظرت للمرأة.. ولم أحتج إلى سؤالها.. إن الباب موصد من الداخل بالتأكيد، وهو لا يفتحه إلا وقت الطعام...

إنه يمارس كل ما يفعله المسجون الانفرادي ولكن بكامل إرادته.. قرعت الباب مرّتين ثم أدركت أنه لن يفتحه أبدًا..

نظرت للمراة في حيرة وسالتها:

- «لماذا لم تخبرى أحدًا؟»

- «إنني أهاب جبروته.. فهو يعد بالتهام حنجرتي لو فعلت..»

- «ليس التهام الحنجرة متاحًا لكل من يريد.. لماذا لم تبلغي الشرطة أو تستعيني بجارين قويين يهشمان الباب؟»

- «لا أريد أن يؤذيه أحد..»

تنهدت في صبر.. وقلت:

- «الأمر الآن يختلف.. فهو يعرف أنني أعرف..»
- «ومعنى ذلك؟»
- «معناه أنه سيلتهم حنجرتك إذا كان صادقًا!»
بدا عليها الرعب كأنما تشعر بالفعل بأسنان زوجها الغليظة على حنجرتها.. وقالت في ارتباك:
- «والعمل؟»
- «علينا اقتحام الباب ومعرفة ما دهاه..»
ولم أتركها تفكر كثيرًا..
هرعت خارج الدار، وطرقت باب الجيران طالبًا عون (تيبور) عامل البناء الذي يملك أكبر نراعين رايتهما في حياتي.. وكان غوريللا مشعرة تحب هذه

الفرص التي تتيح إظهار القوة.. إن عملية تهشيم باب تناسب تمامًا فكرته عن (الاستمتاع بالوقت)..

وجاء من داره جريًا وهو يبصق في كفيه استعدادًا..

سألته وأنا ألهث:

- «ألم يثر اختفاء الرجل ريبتكم؟»

- «بلى.. لكننا نعرف نوبات سكره.. واعتدنا أن نتجاهلها..»

ودخل الدار فتفحص الباب بعين خبيرة..

وللمرة الأخيرة أنذر التاجر بصوت غليظ:

- «(فيتور).. نحن سنهشم الباب ما لم تفتحه..»

- «أذهب إلى جهنم!»

كانت هذه العبارة كافية لإثارة حماسه..
تراجع للوراء واندفع بكتفه إلى الباب.. وكانت الدفعة كافية لأني سمعت صوت المزلاج يتهشم.. ثم انفتح الباب..
كانت الحجرة مظلمة تمامًا.. لكني تعرفت هيكل (فيتور) الجالس أمام المنضدة.. وشممت الرائحة العطنة إياها..
وفي اللحظة التالية كان (تيبور) يمسك بالتاجر من قفاه بينما هذا الأخير يصرخ في جنون محاولًا التملص...
لحظة عرفت ورأيت فيها أشياء كثيرة..
ربما كان أول ما رأيت هو الشيء الأهم..
لقد كان يمسك في يده فأرًا ميتًا..

* * *

- ٢ -

ليس الأمر متعلقًا بالجذام أو الدرن..

إنه متعلق بالجنون.. الجنون المريع الذي يدفع إنسانًا لالتهام فأر دون ذرة اشمئزاز..

ولقد تمكنا من إخراج (فيتور) إلى النور وسط صراخه وهياجه.. الحق أنه كان شاحبًا كالموتى.. لم أر قط هذا الشحوب على وجه إنسان حي..

وتجمع الجيران ليروا ما يحدث.. ووقف (ألكسندر) يرمق المشهد دامع العينين، وقد عاد مجرد طفل مذعور.

وبصعوبة تمكنا من اقتياد التاجر الثائر إلى عيادة د.(ميخائيل) الذي تهشّم له طبقان



ربما كان أول ما رأيت هو الشيء الأهم .. لقد كان يمسك في يده فأرًا ميتًا ..

ولوحا زجاج، وأصابه الذعر فأعلن أنه غير قادر على السيطرة على هذا الوحش..
- «خذوه إلى المخفر.. إلى الزنزانة وسأفحصه هناك!»
وتمكنا من اقتياد التاجر المذعور - مرّة أخرى - إلى المخفر.. كانت هناك زنزانة لا بأس بها وضعناه فيها.. لكنّ - في هياجه المسعور - راح يضرب القضبان برأسه، ويقول كلامًا مختلطًا لا نعرف كنهه.
لم نجد حلًا سوى اقتحام الزنزانة من جديد، وتقييده بمعاونة (تيبور)، حتى استطاع د. (ميخائيل) أن يدنو منه.. وهو يرتجف ذعرًا كمن يدنو من أسد.. وأفرغ محقنًا مليئًا بالفاليوم في وريده...

وأخيرا أطلق المريض شهقة طويلة، ثم غاب في سبات هادئ.. واستطاع الطبيب أن يدنو أكثر.. وأن يتحسس نبضه ويفتح جفنيه.. وأعلن ما توصل إليه:

- «إنّه مريض جدًا..»

فتعالت الأصوات تمتدح عبقريته، وطالبنا بالمزيد فقال:

- «إنها حالة (أنيميا) متقدمة.. يبدو أنها أثرت على توازنه العقلي والنفسي..»

- «والحل؟»

- «لا بد من نقل بعض الدم له..»

وتم الأمر بسرعة.. أحضر الطبيب بعض الكواشف الطبية وميكروسكوبًا، وأجرى فحصًا لدمائنا فكانت دماء (تيبور) العملاق هي الصالحه.. رباه! لكم أبدى هذا البطل

ذعرًا وهلعًا كأننا نريد استنزاف دمه حتى الموت.. وأقنعناه مرارًا بأن هذا لن يؤذيه.. لكنه راح يولول كالنساء الثكالى وهو يرى الدم يتسرب من جسده ليملأ الزجاجة.

وأخيرا تم إعطاء الدم للتاجر المريض.. صحيح أنه غير كاف لكنه جعل شفتيه تبدوان أكثر احمرارًا من الورق..

وعدت لداري راضيًا فتناولت غذائي، ثم عدت المتجر الأدوية كي أفتحه، وأمارس عملي من جديد...

وفي المساء توفي التاجر (مازورسكو)..

* * *

وقفت (إيرينا كالسكا) في متجري، وراحت تتأمل قوارير الدواء في فضول.. ثم سألتني:

- «أريد علاجًا لفقر الدم الذي أعانيه..»

تأملت شفتيها الحمراوين، وخديها الشبيهين بتفاحتين، وقلت:

- «أنت مصابة بفقر دم؟»

- «نعم.. أظن هذا..»

- «لا اعتقد...»

وهززت كتفي وعدت إلى ميزانى الحساس أزن به تركيبة السعال التي أصنعها..

قالت في إصرار:

- «لكني أريد علاجًا لفقر الدم.. ليس من شأنك أن تمنعني..»

وأنا أمقت من يعاملني كبدّال ينحصر عمله في أخذ النقود، ولف السجق في ورقة، وتقديمه للزبون..
إن لي رأيًا ينبغي احترامه...
قلت لها في جفاء:
- «لو كنت نصابًا لأعطيتك ما تريدين..»
ثم خطرت لي فكرة لا بأس بها فقلت:
- «هذا العلاج ليس لك طبعًا..»
احمر وجهها قليلًا فعرفت أنني محق.. فأردفت:
- «ربما هو لوالدتك؟»
- «نعم.. لكني لا أريد ذيوع السر..»
- «هل هي تتصرف بغرابة؟»
إزداد وجهها احمرارًا كأنما يعلن لي أنها لا تعاني (الأنيميا) بشكل نهائي.. وقالت:

- «بغرابة؟ لا.. بل تتصرف بشذوذ إذا أردت الدقة!»
- «شذوذ؟ كأن تخنق القطط وتأكل الزهور؟»
- «بل أسوأ.. هي لا تفعل شيئًا من أي نوع!»

بدا لي كل هذا مألوفًا..

لكني في هذه المرّة لم أتحمس كثيرًا لزيارة المرأة.. ناولت الفتاة علبة الحبوب وتقاضيت الثمن في صمت..

ليتني اهتممت بالأمر أكثر!

❋ ❋ ❋

قال (بوريس) وهو يداعب شاربه الكث، ويتلذذ بخشونة لحيته على ظهر يده:

- «دكتور.. ما معنى (أنيميا)؟»

قلت له وأنا أتأمل وجهه النابض بالصحة:

- «معناها: أي شيء سوى ما أنت عليه..»

ضحك كاشفًا عن أسنانه المغطاة بالتبغ..

كان راعيًا قوي البنيان له رائحة الضان، لكنه كان يروق للنساء باعتباره الرجل الذي هو مائة بالمائة رجل.. إن في كل رجل جزءًا من الأنوثة؛ لهذا يعتبر (بوريس) حالة فذة غير معتادة..

قال لي:

- «أنا لست معتلًا.. أريد هذا الدواء لأخي..»

- «هل هو شاحب؟»
- «طبعًا..»...
- «وغريب الأطوار؟»
- «بحق (مريم) العذراء! أنت تعرف كل شيء!»

ناولته علبة من أقراص الحديد.. يبدو أن المخزون لديَّ لن يكفي كل هؤلاء الشاحبين!

ثم إنني غادرت المتجر قاصدًا دار د. (ميخائيل).

كان النطاسي العجوز هناك عاكفًا على فتح خراج في قدم فلاحة... والمرأة تصرخ كأنهم ينتزعون عينها بمطواة غير حادة..

انتظرت حتى هدأ كل هذا الصراخ، وانصرفت المرأة وهى تطلق السباب

واللعنات على الطب والأطباء..
قال د. (ميخائيل) وهو يغسل يديه:.
ـ «كلهم نفس الشيء.. يجوب الواحد منهم الدنيا يعيث فسادًا، ويرتكب كل الموبقات.. ثم يصيبه خراج في قدمه فيملأ الكون صراخًا، كأن قدمه هي ميزان الأكوان وحقيقة الوجود.. وبعد هذا يدفع لي حفنة (لايات) كأنما ينتزعها من قلب اطفاله..»
ثم تأمل مال المرأة في اشمئزاز.
- «إن نقودهم خالية من البركة.. لأنّهم يمنحونها مصحوبة باللعنات والدعاء على أطفالي بالموت..»
قلت له وأنا أجفف العرق الذي غمر عنقي:

- «هل تصادفك حالات فقر دم كثيرة هذه الأيام؟»
فكر قليلًا.. ثم قال:
- «ليس أكثر من المعتاد.. إن طعام هؤلاء الفلاحين لا يغني ولا...»
- «إذن ترى حالات مثل (مازورسكو)؟»
- «ليس كثيرًا كما قلت..»
هنا خطر لي أن أحدًا لا يبلغه؛ لأن المرضى جميعًا يصرّون على عدم إطلاع الأطباء..
لقد فعلها (مازورسكو) وهدد امرأته بالتهام حنجرتها، وهو ما أشكره على ما كان من موته اللطيف قبل أن يفعلها..
لكن الأخرين فعلو الشيء ذاته على الأرجح..

عدت أسأل د. (ميخائيل) - وأنا واثق أن معلوماته في الطب لا تفوق معلومات أي ترزي - عن احتمال - وجود حالات فقر دم لها شكل وبائي.. مط شفتيه في تفكير.. ثم قال:

- «لا أدري.. ربما مع الملاريا.. أو وجود تسمم رصاص.. أو عند وجود مصدر إشعاع نووي..»

وهز رأسه مستبعدًا:

- «لكنّ لا شيء من هذا في (هالماجيو)..»

- «ألا ترى أن من واجبك إخطار مكتب الصحة؟»

- «لا أظن..»

قالها في ثبات وعناد..

ليس من المستحب أن تبلغ السلطات عن وجود متاعب في نطاق عملك.. لأن أول ما سيحدث هو أن يقصوك عن منصبك، ولأن بداية الخلاص من المتاعب هي الخلاص منك..

إن (شاوشيسكو) يحبّ عمله حقًّا..

* * *

- ٣ -

قد يحدث كل شيء في (رومانيا)..

صحيح أن (بوكوفينا) لم تظل قط رومانية.. بل هي تتأرجح طيلة الوقت بين (رومانيا) و(المجر) لكنّ قواعد (رومانيا) الصارمة تسري عليها..

في (رومانيا) فقط يمكن أن يكثر الشاحبون..

في (رومانيا) فقط يحدث هذا بلا تفسير..

في (رومانيا) فقط يبدأ الكلام همسًا ثم بصوت عالٍ..

الكل يعرف أن شيئًا ليس على ما يرام يحدث..

لكنّ ما هو؟

* * *

وفي أمسية مقمرة من شهر (يونيو).. أمسية من النوع الذي يخرج فيه العشاق إلى غابة الصنوبر المحيطة بالقرية؛ أمسيةٍ من النوع الذي يندر فيه أن ترى جثثًا مشوهة..

أمسية كهذه هي التي وجدوا فيها جثة (إيرينا كالسكا) في الغابة.. كانت عيناها شاخصتين للسماء في رعب.. ولم تكن ثمّة آثار عنف في جسدها، إذا استثنينا التمزيق في عنقها والذي حدث بأنياب حادة.. وكان رأى الضابط بليغًا جدًا:

- «هذه الأشياء تحدث..»
ثم أضاف يفسر وجهة نظره:
- «إن هذه الذئاب الشهباء لا ترحم..»
واقتنعنا برأيه.. صحيح أنّ هذا لم يحدث في قريتنا قط لكنه ممكن...
لا بد من مرة أولى دائمًا..
لكن د. (ميخائيل) جاءني في المساء وأدخلته زوجتي إلى مكتبي الذي هو غرفة معيشتي كذلك..

كان النطاسي العجوز شاحب الوجه، وجلس يفرك يديه بعض الوقت ويجفف العرق على جبهته.. ثم قال:

- «يبدو أنك محق يا (يوليان).. الأمور على غير ما يرام في هذه القرية..»

قدمت له كأسًا من النبيذ كان بحاجة إليه.. وسألته:

- «ما الذي جعلك ترتاب؟»

جرع الكأس مرة واحدة، وقال لاهثًا:

- «تلك الفتاة.. (كالسكا).. لم يكن في عروقها نقطة دم واحدة!»

نظرت له في حيرة ولم أقل شيئًا..

قال ضاغطًا على حروفه:



كانت عيناها شاخصتين للسماء فى رعب .. ولم تكن
ثمة آثار عنف فى جسدها ..

- «هل تفهم؟ ولا نقطة دم.. لقد أفرغ الذئب دمها كله..»

- «لكنكم لم تجدوا دماء حول جثتها..»

- «هذا هو ما أرمي إليه.. لقد تم امتصاص دمها كله..»

- «إنك تتحدّث عن...»

وضع الكأس على المنضدة، وقال:

- «نعم.. نحن في (رومانيا).. وأنت تعرف ما أريد قوله..»

- «لكنّ هذا هراء.. أساطير فلاحين..»

قال في هدوء:

- «لكنّها تفسر كل شيء.. وأعتقد أن من واجبنا أن نتخذ الأساليب المعهودة في الأسطورة: الوتد - قطع الرأس.. ليس

مفترضًا أن نترك جثتي الفتاة و(مازورسكو) دون احتياطات..»
- «يا للهول! تريد هذا التمثيل البشع بالجثث؟»
أحسّ أنه قد تمادي قليلًا.. فقال متداركًا:
- «ربما حشو الفم بالثوم وقطعتي الفضة على العينين.. يقولون إن هذا أسلوب فعال..»
- «وهل تعتقد أن القوم سيقبلون؟.. وهل يقبل القس؟»
- «أعتقد أنه لا ضرر في هذا..»
في هذه المرّة كان دوري كي لا أبدي حماسًا..
ونجحت في إقناع الطبيب المذعور بتجاهل الأمر..

* * *

لكن الأقاويل تتزايد...
والحكايات المخيفة تكثر..
ولاحظت أن الجزء الشمالي من القرية هو موطن كل هذه القصص، وخاصّة ما يحيط منها بالكهف القديم الذي كان أهل القرية يتجنبونه بشكل خاص دون سبب واضح..
ويقع - ككل الكهوف - عند قاعدة تل حجري صغير..
ما هو سر هذا الكهف؟
لقد كان هناك منذ وجدت القرية، وسيظل بعدها.. وهو كهف لا يميزه أي شيء

خاص.. فهو كهف كأي كهف آخر.. فم فاغر أسود تدخله وتخرج منه الوطاويط..
وللأمانة لم تكن هناك أية أساطير حول هذا الكهف، ولم يقل أحد إن الشياطين تكمن فيه أو إن الأطفال الذين يلعبون جواره يختفون.. لا شيء من هذا..
ولم يكن صالحًا لاختباء الناس أو للهو الأطفال، لأن رائحة عفنة مقيتة تخرج منه باستمرار كأنه مجرور.. لهذا لم يكن يثير اهتمام أحد.. ومن دخلوه لم يجدوا فيه ما يستحق العودة..
لكن الأقاويل تكثر..
وبالتدريج صارت القرية تنقسم إلى قريتين:

القرية الأولى جنوبيّة تجلس جوار المدفأة ليلًا.. وترتجف.. وتتحدث عن أمور مريبة تحدث في القرية الثانية..

القرية الثانية شماليّة خاوية على عروشها ملأى بأشخاص أغلقوا أبوابهم على أنفسهم، وكفوا عن مزاولة أعمالهم، ولا يعلم سوى الله من أين يطعمون ويشربون.. وكلهم مصاب بهذا الشحوب..

صحيح أننا كنا نراهم أحيانًا أو نزورهم. لكنهم قد فقدوا كل رغبة في العلاقات الودية معنا..

كأنهم صاروا آخرين..

ولم يكن في كل هذا ما يمكن إخبار السلطات به.. أو إخبار مكتب الصحة.. فمن حق الناس جميعًا ألا يكونوا ودودين..

لم تحدث حالات وفاة أخرى.. ولم نسمع عن أحداث عنيفة كالتي حدثت مع (مازورسكو) لهذا لم يكن هناك من يُقال..

إن الأمر شبيه بأن تبدي رأيك في رواية لم ترق لك... لكنّها جيدة من حيث الأسلوب واللغة والحبكة والشخصيات.. عندها يتقلص وجهك وتقول في عسر:

- «لكنّ شيئًا ما ليس على ما يرام.. شيئًا ما غير موجود.. هل تفهمون ما أعنيه؟»

كان ذلك حين قررت أن أرسل خطابًا إلى مجلة نسائية أعلنت أنها تحقق في الأمور الغامضة غير السياسية.. إنها مجلة يرأس تحريرها صحفى بدأ يلمع اسمه (جوستاف نيكولسكو).. في (رومانيا) فقط - على ما أعلم - يمكن لذكر أن يرأس تحرير مجلة

نسائية.. وهذه من الأعاجيب التي أتحدث عنها..

لم أقل كثيرًا في خطابي، ولم أثرثر أكثر من اللازم، كما لم أتوقع لحظة استجابة من المجلة.. بل إنني نسيت الأمر كله..

حتى فوجئت بزيارة رجلين قادمين من (بوخارست)..

وكان هذا في منتصف أكتوبر..

* * *

- ٤ -

كانت سيارة (زاباروجيتس) فاخرة جدًا.. خرج منها رجل في منتصف العمر أنيق جدًا، فخيم المظهر، يدخن السيجار، وقد بدأ الشعر يتساقط عن مقدمة رأسه، وكان يحمل حقيبة جلدية فاخرة..

أما الآخر فكان نحيلًا أصلع الرأس، يشبه القلم الرصاص ذا الممحاة، لو أنّ الأقلام الرصاص تضع العوينات..

قال الرجل الأنيق وهو يصافحني في تواضع:

- «مرحبًا.. لا بد أنك د. (يوليان بودسكو)..»

- «أنا هو..»

فالتفت إلى القلم الرصاص ذي الممحاة ليقول بالإنجليزية:

- «قلت لك إنني لم أخطئ العنوان..»

هنا فهمت سر مظهره الغريب.. إن القلم الرصاص أجنبي.. ولكن من أية جنسيّة بحق السماء؟ هاتان العينان الجاحظتان تقولان إنّه ليس أسيويًا.. لكنّ بشرته أقل سوادًا من الأفارقة.. وشفتاه أكثر غلظة من الأوروبيين.. أتراه من المريخ؟

صافحنى الرجلان.. وقال الأول:

- «أنا (جوستاف نيكولسكو)..»

شخصيًا؟! غريب هذا! رئيس التحرير آت بنفسه لدراسة الموقف؟ كنت سأجد الأمر

طبيعيًا لو أرسل إليّ صحفيًا تحت التمرين أو صحفية متحمسة..

أردف وهو يقدم القلم الرصاص ذا الممحاة لي:

- «وهذا هو البروفسور (إسماعيل) من (مصر)..»

مصري؟ غريب.. إنّه لا يشبه المصريين كذلك..

- «هل وصلتك برقيتي؟»

- «للأسف إن خدمة البرق هنا.....»

- «أفهم.. أفهم.. لا عليك.. هل يوجد مكان للإقامة هنا؟»

ضربت أخماسًا في أسداس.. وقلت حائرًا:

- «الواقع لا.. إن داري صالحة على كل حال..»
تبادل النظرات مع صديقه.. كأنه يقول له (هؤلاء الفلاحون!)..
لكن صديقه كان يتابع الحديث بتلك العيون الزجاجيّة المميزة لمن لا يفهم اللغة التي يتم بها الحوار.. لهذا عاد يترجم له بالإنجليزية ما قيل.. ولم يبد القلم الرصاص سعيدًا بهذا..
لكنهما جاءا داري على كل حال.. وهي دار لا بأس بها أعتقد أنها أحسن دار في القرية..
تناولنا طعام الغداء، وعرفتهما زوجتي، وكنا حريصين على أن يدور الحديث بالإنجليزية حتى يفهمنا الطبيب المصري

الذي عرفت أن له باعًا ما في علوم الميتافيزيقا.. ويبدو أن له شهرة عالمية ما..

وحكيت لهما القصة كاملة..

ثم استرخيت في مقعدي منتظرًا آراءهما..

* * *

حكاية الطبيب النحيل

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال د. (رفعت):

كان (بودسكو) بدينًا جدًا.. ربما أقرب للبقال الإيطالي كما نراه في الأفلام.. وبصعوبة يُمكنك أن ترى عينًا أو اثنتين، أو فمًا يتحرك وسط طبقات الشحم والعرق التي تغلفه.. كأنما عيناه وفمه ثقوب في كتلة من الزبد.. إنّه المعجزة الحية في البقاء حيًّا برغم كل هذا الدهن..

كان يتكلم بانجليزية رديئة ممزوجة بالرومانية.. لكنّ كلامه كان مفهومًا.. وإن كنت أتوقع في كل ثانية أن يسقط ميتًا..

ولنا حكى ما أثار ريبته في قريته هذه.. ثم طلب منا الرأي..

قلت في كياسة:

- «لا يمكن إبداء الرأي مالم ترَ أحد هؤلاء الشاحبين..»

قال وهو يهز رأسه في إصرار:

- «مستحيل.. إنهم لا يقابلون أحدًا..»

- «تعني أنهم لا يتسوقون، ولا يأتون لشراء (الأسبرين) منك؟»

- «إن لهم مجتمعهم الخاص كما قلت لك..»

تبادلت و(جوستاف) النظرات.. وقلت:

- «كأنه دين جديد.. دين ينفصل أتباعه عن المجتمع..»

- «دين الشاحبين إذا راق لك التعبير..»

هنا قال (جوستاف) وهو يشعل سيجاره:
- «دكتور (بودسكو).. نحن قوم عمليون نرغب الانتهاء من هذه القضية سريعًا.. لهذا يجب أن نرتب أمورنا على أساسين: الأول هو زيارة ذلك الجزء المعزول من القرية.. الثاني هو رؤية جثث من لقوا حتفهم وترتيب تشريحها تحت مظلة علمية أكثر كفاءة...»
قال (بودسكو) بصوت كالفحيح:
- «لن ترى أحدًا على الإطلاق.. كلهم في بيوتهم ولا يخرجون.. فقط حين يجيء المساء تسمع ضوضاء قادمة من هناك.. وبالطبع يخشى الجميع هاهنا تبين الأمر.. إن البقاء في الدار ليلًا جوار النار ليس فكرة رديئة جدًا كما ترون..»

فتح (جوستاف) حقيبته الجلدية الأنيقة، وأخرج كاميرا صغيرة ثم أعلن أنه يريد البدء بالتقاط صورتين للصيدلي..

ابتسم الرجل ابتسامة بلهاء.. فهو ككل شخص آخر يسره أن يظهر وجهه البدين في الصحف، ولعل الحظ يسعده فيراه (شاوشيسكو)..

قال (جوستاف) بعد ما انتهى:

- «هل نذهب الآن لرؤية القطاع الشمالي من القرية؟»

نهض الصيدلي معلنًا أنه موافق.. فلا يوجد ما يخشاه هناك في فترة الصباح والظهيرة..

ونهضت أنا شاعرًا بأنه من السخف أن أخاف شيئًا لا يخافه هذا الصيدلي المذعور

كارنب..

* * *

راحت السيارة تشق شوارع (هالماجيو) الضيقة المرصوفة بالحجارة.. شمس العصر تغمر كل شيء بقيظها الذي يداعب في عينيك رغبة القيلولة.. والحر شديد برغم أنه أكتوبر..

الديار كلها مغلقة ولا أحد بالخارج.. لا طفل يلهو.. لا كلب يبحث بانفه في القمامة.. لا عجوز ينتظر في متجره مشتريًا لا يجيء..

الحق أنها كانت قرية الأشباح..

راح (جوستاف) يجوب الطرق بسيارته بسرعة جنونية.. يخرج من هذا إلى ذاك، ويعود من ذاك إلى هذا..

لا شيء.. خواء..

وأخيرا رأى فتحة الكهف الفاغرة إياها، عند قاعدة تل متوسط الارتفاع.. وكان من الطبيعي أن يتوقف بالسيارة هناك..

كانت الأرض منحدرة للوراء فجذب فرملة اليد محدثًا صوت (كريك ك ك!) الذي بدا غريبًا وسط هذا السكون..

ورحنا نرمق الكهف في فضول..

كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته، في محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول..

وعلى جانبي الفتحة كانت هناك كتابات بالطبشور، وقلوب متشابكة.. إلى آخر هذا الهراء..

تساءل (جوستاف):

ـ «ما هذا الكهف؟»

قال الصيدلي مفسرًا كل شيء:

- «هذا كهف..»

ـ «أعلم.. لكنّ ماذا تعرف عنه؟»

قلت أنا في ملل من اعتاد هذه الأمور:

ـ «القصة المعروفة.. ثمّة شيء ما يعيش بداخله.. لهذا يهاب الناس الدنو منه، ويرسمون علامة الصليب كلما رأوه.. والسر وراء ما يحدث في القرية موجود بين هذه الأحجار..»



كان هناك حبل غليظ يمتد بالعرض عبر فتحته ، فى
محاولة بلا جدوى لمنع الناس من الدخول ..

هزّ الصيدلي رأسه البدين عدة مرات، وقال:
- «بالعكس.. لا توجد خرافات من أي نوع تحيط بهذا الكهف..»
كانت الرائحة الخارجة من الكهف عطنة جدًا، وأبدى (جوستاف) ملاحظة بهذا المعنى.. فقال الصيدلي:
- «هذا حق.. وهو سبب وجيه، ينفر الشباب من الدخول فيه.. إن الوطاويط لا تجيد أعمال النظافة كما هو واضح..»
- «إنها ليست رائحة كريهة فحسب.. بل هي رائحة شيطانية..»
ثم نظرت إلى (جوستاف) متسائلًا:
- «من الواضح أننا سندخل.. هل نفعل ذلك الآن؟»

- «لا بحق السماء.. لا بد من إعدادات.. لا بد من مسدسات وحبال وكشاف.. أنت تعرف هذه الكهوف..»

- «إذن ماذا سنفعل الآن؟»

- «نجرب قرع الأبواب..»

قالها وهو يغادر سيارته..

* * *

قرعنا الباب عدة مرات لكنّ أحدًا لم يرد.. على حين وقفت أنا على بعد خطوات أرمق نافذة الطابق الأول.. قد لا يفتح أحد الباب، لكنه حتمًا سيتلصص علينا من عل.. وكنت محقًا.. فقد رأيت وجه امرأة عجوز ذات شعر أشيب ترمقني من وراء زجاج

النافذة.. ولوهلة التقت عينانا، ثم رأيتها تغيب داخل الحجرة المظلمة..

عاد (جوستاف) يضرب الباب مرارًا.. ثم إنّه سأل الصيدلي:

- «منزل من هذا؟»

- «منزل (ماريا كالسكا).. أم الفتاة التي لقيت حتفها..»

- «إذن دعنا نجرب بابًا آخر..»

واتجهنا في صمت - وشمس العصر تحرق عيوننا، ولا شيء سوى صوت لهائنا - إلى باب مجاور... فواصلنا قرع الباب..

قال الصيدلي باسمًا:

- «لا جدوى هناك.. أنا فعلت هذا قبلك مرارًا..»

هتف (جوستاف) في جنون:

- «لكنّ لا بد من وسيلة لإرغامهم على فتح الباب.. قوة من الشرطة على سبيل المثال أو......»

- «لا يوجد خطأ قانوني في أن يأبى المرء فتح بابه..»

لكنّ - قبل أن يرد (جوستاف) - كان الباب قد انفتح..

وسمعنا من يدعونا إلى الدخول..

* * *

- ٢ -

كانت الرائحة العطنة تزكم أنوفنا.. لكننا دخلنا..

وفي الداخل كان الظلام دامسًا..

احتجنا إلى بعض الوقت حتى تتكيف شبكيات عيوننا، وحتّى تتخلص من مئات الشموس الملونة التي راحت تطبعها على كل شيء..

أخيرا رأينا أسرة من ثلاثة أفراد تجلس على منضدة في الظلام، وكان هناك شبح طويل القامة يعود ليتخذ لنفسه مقعدًا.. فعلمت أنّ هذا هو من فتح لنا الباب..

- «ماذا تبغي يا (يوليان)؟»

قالها الشبح الطويل بصوت مبحوح.. طبعًا لم أفهم ما قال، لكنّ (جوستاف) هو من ترجم لي الحوار بعد ذلك..

كانوا في الظلام فلم أستطع رؤية وجوههم.. لكني لم أحب كثيرًا تلك الظلال المميزة لهم.. كما أنني لم أحب ذلك الصوت المتحشرج..

سأنقل لك المحادثة كما ترجمها لي (جوستاف) فيما بعد..

قال (يوليان):

- «(ميخائيل).. ماذا دهاكم جميعًا؟ هل أصابكم الجنون؟»

قال (ميخائيل) الذي عرفت أنه الشبح:

- «لم يحدث ما يدعو لحيرتك يا صديقي.. أنت ترانا بخير..»

- «بل صرتم في عالم آخر غير عالمنا..»
- «ليس حب الانعزال جريمة..»
- «ربما كان مرضًا..»
قال (ميخائيل) وهو ينهض..
- «أنا أحبك أيا (يوليان).. ولهذا أنصحك كل النصح ألا تفتش عن الحقيقة كثيرًا.. فالحقيقة أكبر منا جميعًا.. وأنصحك كذلك ألا تأتي ها هنا ليلًا..»
تلفت (يوليان) حوله بحثًا عن شخص غير موجود.. وتساءل:
- «أين (إيزبيا)؟»
قال (ميخائيل) بنفس الصوت:
- «(ايزبيا) ماتت يا (يوليان).. منذ شهر..»

كان هذا حين علمنا ـ فيما بعد ـ أن (إيزبيا) هي زوجة الرجل.. ويبدو لسبب ما أن الخبر كان غير معقول، لأن (يوليان) راح يردد في هستيريا وذهول:

ـ «ماتت! (إيزبيا) ماتت؟ وكيف لم نعلم؟»

ـ «إن الموت يحدث.. ولا يجدي إخفاؤه أو اعلانه..»

ـ «وأين دفنتموها إن لم يكن في الكنيسة؟»

ـ «قلت لك يا (يوليان) إننا لم نعد ننتمي لكم.. ليس مأكلنا مأكلكم ولا مشربنا مشربكم، ولا ديننا دينكم، ولا قبورنا قبوركم!»

هنا تدخل (جوستاف) في هذه المحادثة الرومانسية الشانقة، التي لا أفهم منها حرفًا سوى الإيماءات والنظرات..

قال (جوستاف):

- «ليس هذا سهلًا في دولة مثل (رومانيا).. لا أحد يستطيع أن ينفصل عن المجتمع مكونًا مجتمعًا جديدًا.. إن مخالب السلطة في كل مكان وداخل كل شقّ في الصخور.. حتى الجثث في قبورها خاضعة للرفيق (شاوشسكو)..»

سمعت لفظة (شاوشسكو) ففهمت أن في الأمر تهديدًا ما..

قال (ميخائيل):

- «حتى رفيقك (شاوشسكو) لن يستطيع الوصول إلينا الآن.. فنحن في عالم آخر

بعيد عن كل ما تخافونه..»

ثم أشار إلى الباب إشارة صامتة..

قال (يوليان) وهو ينهض:

- «أخشى يا (ميخائيل) أننا مضطرون لإبلاغ السلطات في (بوكوفينا).. وليس هذا ضدّ حق الجيرة بل هو معه..»

وفي صمت مشينا إلى الباب وسط الظلام..

صوت أخشاب الأرضية يئن تحت أقدامنا..

ولحسن الحظ لم يفعل أحدهم ما كنت أخشى أن يفعلوه.

مثل ماذا؟

مثل قتلنا طبعًا!

*   *   *

في دار الصيدلي؛ تناولنا طعام العشاء..

كانت على الحائط ساعة عتيقة من العصر الباليوزي، من التي تجلب الأشباح وتوشك دقاتها على إيقاظ الموتى.. بينما كانت هناك فوق رف المدفأة أيقونة للسيدة العذراء.. وصليب كبير جدًا.. وبضع صور للمرحومة خالة والدته..

وكانت الزوجة بدينة جدًّا كزوجها.. لكنّها صموت تبتسم في تحفظ طيلة الوقت.. وكان طهيها رديئًا على عكس كل البدينين الذين يجيدون الطهي غالبًا..

إن الطعام الروماني جيد وقريب جدًا من طعامنا.. الأمر الذي يؤكد لك أن طهيها

كان سيئًا حقًّا..
قال (جوستاف) وهو يجرع ما بقي في كأسه:
- «بعد العشاء سنعود إلى الشاحبين!»
كان هذا كافيًا كي يتوقف الطعام في حلقي.. ورحت أسعل فناولني لكمة بين لوحي كتفي وكوبًا من الماء.. ثم قال:
- «هذا هو الحل الوحيد كي نكمل مهمتنا التعسة.. نحن نعرف أن شيئًا مريبًا يحدث ليلًا.. ما هو؟»
قال الصيدلي وهو ينزع المنشفة من عنقه:
- «في هذه الحالة أنا لن ألحق بكم.. آسف..»

- «هذا حقك يا صديقي.. لكننا في حاجة إلى بعض الأشياء..»
ثم راحٍ يعد على أصابع يديه:
- «أولًا: نحتاج إلى كشاف.. ثانيًا: نحتاج إلى حبل.. ثالثًا.....»
هتف الصيدلي غير مصدق:
- «أنت لن تدخل الكهف الآن!»
- «لم لا؟ سنحاول لو وجدنا فرصة ما.. ثالثًا نحتاج إلى سلاح.. إن معي مسدسي..»
قلت أنا دون حماس:
- «مسدسي معي أيضًا..»
- «هذا رائع.. هيا بنا..»
طبعًا حاول الصيدلي إقناعنا لكننا - أعني (جوستاف) - لم نبد على استعداد للين..

ولكم تمنيت لو أنّ هذا الرجل يملك القدرة على الإقناع!

غريب أمر (جوستاف)!

لقد عرفته دومًا شخصيّة ذكية، لكنّها أقرب إلى الخفة والافتقار إلى الصرامة.. لكنّ ترقيه في المناصب والسن جعله شخصيّة كاسحة تتعذر مقاومتها.. وصار أكثر شجاعة وحزمًا..

إن الشخصية لكيان غير مفهوم.. هل حقًّا ذلك القائد الهمام هو ذات المتردد بطيء الفهم الذي عشت معه قصة المذءوب إياها؟

وجلب لنا الصيدلي ما طلبنا، وتمنى لنا حظًا سعيدًا، ورجانا ألا نتهور أكثر من اللازم.. فلا أحد يعرف على وجه اليقين ما

يمكن أن نجده.. ولم تكن لدى أية نية للتهور على كل حال..

وفي العاشرة مساء انطلقنا إلى الجزء المعزول..

* * *

- ٣ -

- «الآن نترجل..»

قالها (جوستاف) وهو يوقف محرك السيارة..

لم تكن لديَّ نية من أي نوع لمغادرة السيارة.. فهي تبدو كبيت آمن دافئ، والليل قد صار أبرد.. والظلام صار أكثف..

- «هل لا بد من تركها؟»

قال في غيظ:

- «هل تمزح؟ هدير محرك سيارة وكشافاتها وسط هذا السكون والظلام؟ إن الموتى سيغادرون قبورهم مذعورين»

وغادرنا السيارة؛ بعد ما أوقفها (جوستاف) في زقاق مظلم من أزقة القرية المتشابهة كلها والمرصوفة ـ دائمًا ـ بحجر الإسكافي..

ـ «هل الحبل معك؟»

- «وهل الكشاف معك؟»

- «إذن نحن مستعدان..»

وانسللنا صامتين كاللصوص عبر الأزقة، لا نهتدي إلا بضوء خافت من آن لآخر لمصباح باهت في طريقنا..

لكن صوت الصخب كان يخبرنا أننا لم نضل الطريق..

❋ ❋ ❋

أي مشهد رهيب رأيناه!
كنا ندنو من النيران الملتهبة التي أشعلوها في وسط الشارع.. والتي تعلو إلى عنان السماء، والتي يمارسون حولها نشاطًا لا أدري كنهه.. يتخلله صخب غير معتاد..
وهمس لي (جوستاف):
- «لا تدن.. تعال نتوار..»
ووجدنا وراءنا بيتًا بابه موارب.. واضح أن صاحبة قد غادره متعجلًا كي يلحق بهذا الاحتفال..
ولم نتردد.. دخلنا الباب إلى الداخل المظلم عطن الرائحة.. أين شممت هذه الرائحة من قبل؟ آه.. في الكهف طبعًا..
كانت هناك درجات سلم متآكلة تقود إلى طابق ثان.. ومن هناك تغدو الرؤية

أفضل..
صعدنا في الدرج الذي لم يكن يحدث صريرًا.. ومن النافذة كان وهج النار يغمر القاعة بضوء ذهبي رقراق؛ يسمح لألف خاطرة مروعة بأن تولد...
نظرت إلى الوراء في ذعر وتحسست مسدسي.. لا أحب كثيرًا أن أجد صاحب الدار يقف وراءنا فجأة.. متى سيعود؟ هل سنشعر به؟
ثم كتمت خواطري ودنوت من النافذة، ورحت و(جوستاف) نرمق المشهد راكعين على ركبتينا..
كان المشهد عامّة يوحي بطقوس ما..
للدقة أكثر كان يوحي بطقوس الخصوبة كالتي يذكرها من رأوا فيلم (رجل

الخيزران).. هذا الجو الهمجي الوثني الذي يجمد الدم في العروق.

كانوا يدورون دون كلال حول النار المشتعلة في وسط الشارع.. نار مضرمة في ما تيسر لهم من أخشاب وإطارات قديمة..

رجال ونساء كلهم شاحبو الوجوه إلى حد يذكرك بحرباء مذعورة.. وقد اكتسبت وجوههم المتألقة في النيران طابعًا مرعبًا يوشك أن يكون سينمائيًا..

وفي السماء ترددت الأهازيج التي يترنمون بها..

- «ماذا يقولون يا (جوستاف)؟»

- «لا أفهم حرفًا..»

لا يفهم حرفًا مما يغنون.. لكنهم يغنونه بحماس...

وأدركت من موقعي أن ثمّة ما ليس على ما يُرام في مظهرهم...

الشحوب؟ لا.. لا.. شيء آخر..

من هذه المسافة البعيدة وبرغم وهن بصري أرى شيئًا ما خطأ..

إن وجوههم متآكلة مهترئة.. وأنوف بعضهم بدأت تتساقط.. هل الجذام؟ لا.. لا يبدو الجذام هكذا..

وسرت قشعريرة في عمود الفقري..

إن هؤلاء القوم يتحوّلون إلى مسوخ..

* * *

وتذكرت مشهدًا مماثلًا لهذا في (جامايكا).. منذ أعوام طويلة.. سحرة (الفودو) كانوا ملتفين حول شاب، يقومون بتحويله إلى (زومبي).. (كوديكا).. (كوديكا)..

رباه! إننى أسترجع ذات الشعور المقيت بكل تفاصيله..

ويسقط القلم من يدي..

* * *

ولم يكن الشاب الذي يلتفون حوله مقيدًا إلى عمود هذه المرّة.. كان معلقًا من قدميه كالذبيحة.. وأدركت أنه حي.. وأنه مذعور.. وأنه يتلوى محاولًا الفرار حاسبًا

ـ ذلك الأحمق ـ أن مجرد الإصرار كاف لقطع حبل غليظ كهذا..

همس (جوستاف):

- «بحق السماء! من هذا؟»

ـ «إنّه القربان الدموي لهذا الحفل الوثني.. هذا واضح...»

آه لو لم يكن ذلك الشعور الجهنمي بأن هناك من يراقبني!

❋ ❋ ❋

هو ـ الذي يمشي في الظلال - يراك ويسمعك الآن..

❋ ❋ ❋

هو - الذي يمشي في الظلال - يعرف أنك هنا..

❋ ❋ ❋

هو - الذي يمشي في الظلال - لا يعرف معنى الأعذار...

❋ ❋ ❋

كانوا يتصرفون في سلاسة ويسر كأنهم فعلوا ذات الشيء مرارًا..
أولًا: دار عليهم من يحمل صينية عليها عدد كبير من الكئوس الزجاجيّة الفارغة.. فأخذ كل واحد كأسًا..

ثانيًا: دنت امرأة عجوز شعرها أشيب ـ لا أستبعد أنها من كان يرمقنا من النافذة ـ حاملة مدية صغيرة..

ثالثًا: بالمدية أحدثت جرحًا في عنق الشاب المعلق...

رابعًا: راح كل منهم يدنو بالكأس ليفعمه من الدم المتساقط.. كانوا يقومون بهذا وهم يتحركون على شكل دائرة.. كل يملأ كأسه مرة.. ويجرعه مرة واحدة.. ثم يتحرك في الدائرة بينما يتلوه آخر..

إن الإنسان يحوي خمسة لترات من الدم.. والكأس يسع مائة سنتيمتر مكعب.. أي أنّ هناك دمًا يكفي لملء خمسين كأسًا.. ولما كان عددهم يقرب من الثلاثين؛ فقد قدرت

أن ثلثيهم - من سعداء الحظ - سيملئون الكأس مرّتين..
حسبة صغيرة كانت نتيجتها أنني تحسست جيبي، حتى وجدت زجاجة أقراص (النيتروجلسرين) فدسست واحدًا تحت لساني..
أما (جوستاف) فقد تصلب كتمثال (آياح حتب)..
لحظات ثم سمعت الـ (أوع) المميزة المألوفة.. بعض الناس لا يملكون قلوبًا واهنة، لكنّ لهم معدة أوهن..
وحين استعاد قدرته على الكلام هتف:
- «(رفعت)! إنهم غيلان!»

* * *

- ٤ -

هو - الذي يمشي في الظلال - سيعود وينتصر..

* * *

لماذا يفعلون ذلك؟

إن كثيرين يصابون بفقر الدم.. لكنّ شرب الدم لم يكن يومًا من الأساليب المحببة لعلاج هذا المرض..

إنه احتفال قائم على تصفية دماء هذا الشاب ثم شربها.. وهو ـ بحق - أسلوب



دنت امرأة عجوز شعرها أشيب - لا أستبعد أنها من
كان يرمقنا من النافذة - حاملة مدية صغيرة ..

غير معتاد.. لعل امتصاص الدماء أكثر احترامًا واتفاقًا مع التقاليد.

أما ما حدث بعد ذلك فكان غير معتاد بدوره...

لقد أسكرتهم الدماء! تحولوا إلى مجموعة من السكارى المعتوهين يتطوحون يمينًا ويسارًا ويحدثون صخبًا.. وبعضهم راح يرقص رقصة خرقاء غير متسقة.. أو يقوم بحركات بهلوانية لا معنى لها..

قال (جوستاف) غير مصدق:

- «بل هم مجانين كذلك!»

- «أظن أنّ هذا أمر مفروغ منه..»

ومن جديد عاودني الشعور السابق بأنني مراقب.. نظرت إلى الوراء.. لم تكن الحجرة مظلمة تمامًا بفضل ضوء اللهب..

ولم يكن هناك ما يخيف سوي قطع الأثاث القديمة..

لكني شعرت بتلك الغريزة الملحة تقول لي: أهرب! اهرب، كأن الجحيم يطاردك؟

قلت لها: كفي سخفًا.. فأنت تجعلين منى جبانًا..

قالت في نفاد صبر: وهل كذبت عليك من قبل؟!

الحق أن لا.. وهكذا قلت لـ (جوستاف):

- «أعتقد أن الوقت قد حان للفرار..»

- «لكننا لم نفهم شيئًا ولم ندخل الكهف..»

- «لا أظن أنهم سيعطوننا فرصة لمحاولة هذا.. لو أردنا العودة فليكن هذا صباحًا ومع آخرين..»

فكر قليلًا ثم رأى أن الصواب هو ما قلته.. قال وهو يبتعد عن النافذة:

- «لا بأس.. من يدري؟ لربما عدنا بقوات من الجيش.. فهذا المكان يستحق الحرق بقنبلة ذرية..»

ولاهثين ككلبين في يوم حار؛ رحنا نهبط في الدرج قاصدين الباب الخارجي.. ومد (جوستاف) يده ليفتحه...

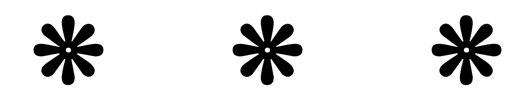
لقد تأخرنا أكثر من اللازم..

ليتنا فعلناها منذ دقيقتين أو أكثر..

كان صاحب الدار عائدًا إلى داره لغرض ما..

وحين فتح الباب ورأى وجهينا اتسعت عيناه ذهولًا..

وسمعته يقول شيئًا ما بصوت كالفحيح..



- ٥ -

كانت ملامحه واضحة بصعوبة في الضوء الخافت، لكني - بطريقة ما ـ كنت أرى عينيه تلمعان في الظلام كجمرتين..

وأدركت - والقشعريرة تغمر جسدي ـ أنّ هذا المخلوق يرى في الظلام بشكلٍ جيّد جدًا..

ولم يكن أمامنا وقت للتردد أو البحث عن حل أمثل.. حياتنا تتوقف على العنف ولا شيء سواه..

وهكذا ـ في اللحظة ذاتها - ركلت الرجل في أسفل بطنه.. بينما هوى (جوستاف) بيده المتشابكتين على مؤخرة رأسه..

وحين تداعى الرجل للأرض ركله (جوستاف) بين أضلعه بحذائه الفاخر الغليظ..
مددت يدي إلى قداحتي فأشعلتها وقربتها من وجه الرجل، لأتبين ملامحه حيث تمدد على الأرض فاقد الوعي..
وهمست:
- «رباه! إنّه لا ينتمي للبشر!»
وهمس (جوستاف):
- «مسخ!»
كانت أذناه متآكلتين وأنفه مجدوعًا.. أمّا بشرته الشاحبة كهذه الورقة فكانت ملأى بالقروح.. ومن بين شفتيه سال خيط من الدماء.. ليست دماءه طبعًا.. لكنه - ولله الحمد - لم يكن ذا أنياب..

- «هل هو مجذوم؟»

سألني (جوستاف) وهو يرتجف..

قلت وأنا أطفئ نور القداحة كي يذهب هذا المسخ بعيدًا:

- «لقد رأيت مجذومين كثيرين في حياتي.. ويمكنني أن أؤكد أنّ هذا لا يمت لهم بصلة..»

وفتحت الباب أكثر كي يتيح لنا الخروج، ورفعت قدسي لأعبر فوق الجثة.. حين... إن هذه الأشياء تحدث دائمًا في هذه المواقف..

لقد شعرت بيدين من حديد تتشبثان بكاحلى..

ثم تحررت يد منهما كي تمسك بكاحل (جوستاف).

لقد أفاقت ضحيتنا وتشبثت بساقينا كمصايد الدببة.. وسرعان ما تعثرت وسقطت على الأرض، بينما راح (جوستاف) يواصل الركل محاولًا ألا يفقد توازنه...

لكن الرجل الساقط على الأرض كان قويًا أو منحه الغضب قوة.. وقد راح يمسك بنا وهو يُطلق صرخات عاتية كأنه عربة إسعاف مصابة بسرطان الحنجرة..

اخرس.. عليك اللعنة! اخرس!

لو كانا رجلين سوانا أنا و(جوستاف) - طبيب وصحافي - لعرفا كيف يخرسان هذا المستغيث.. لكننا لم نجد حلًا أو منعنا الرعب من إيجاد حل..

وإن هي إلا لحظات حتى انفتح الباب تمامًا..

ولمحنا في الظلام - لأن اللهب كان وراءهم - عشرة وجوه على الأقل من وجوه هؤلاء القوم..

كان بعضهم يحمل العصا.. وبعضهم يلوح بسكين هائلة.. واثنان كانا يمسكان بمنجل من هذا الذي لا تراه إلا في يد الموت على ورقة (التاروت) إياها..

مد (جوستاف) يده إلى مسدّسه وشهره في وجوههم وهو يرطن بالرومانية مهددًا بالتأكيد...

قلت له وأنا أنهض من عثرتي، وقد تراخت قبضة الرجل:

- «لا يا (جوستاف).. لا! لن تنال منهم سوى اثنين أو ثلاثة ثم يمزقتنا الباقون إربًا.. لا يبدو أنهم يخافون شيئًا..»

قال أحدهم شيئًا ما، ثم دخل إلى المنزل المظلم.. وكما توقعت تمامًا انتزع المسدس من يد (جوستاف) دون أن يتردد لحظة..

لا أدري متى ولا كيف أخرجونا من المنزل..

كانوا يهددوننا بأسلحتهم الفطرية، وهم يقتادوننا إلى النيران التي تزداد تأججًا..

ووجدت نفسي واقفًا على بعد أمتار من الجثة المتدلية، التي كفت عن الاحتضار منذ دقائق..

كنت أتمنى أن أمتع القارئ أكثر، فأقول إنهم مزقونا إربًا أو ألقوا بنا في النار..

لكني مازلت حيًّا أحكي هذه الأسطر.. إذن لم أمت لكني دنوت من ذلك جدًا للأسف..

وكما أقول دائمًا في قصصي: ليس المهم ما حدث.. المهم كيف حدث؟

ماذا كنت أقول الآن؟

آه! وجدنا نفسينا نقف جوار النيران، بينما هؤلاء القوم يحيطون بنا.. وفي ضوء اللهب أدركت أن ظاهرة التآكل عامّة..

إن قرية (هالماجيو) تمر بأشنع تحول مسخي يمكن وصفه..

ونظرت إلى (جوستاف) الذي وقف محتفظًا بوقاره.. وقد راح يتكلم معهم بالرومانية.. على الأقل هم لم يفقدوا فهمهم للغة بعد..

إن لغة الإيماءات والنظرات تفسر ستين بالمائة من هذه المحاورة:

- من أنتما أيها الدخيلان؟ كيف تعديتما على حفلنا الديني؟

- أنا صحافي من (بوخارست) ولي اتصالات مهمّة.. وثقوا أن (السكيوريتاتيا) لن تتركني دون بحث محموم عني...

- هاها! لا أحد يعرف أنكما هنا.. ونحن لم نعد تحت سيطرة أحد..

ثم تدخل رجل تعرفت صوته المبحوح دون جهد.. إنه (ميخائيل) زوج (إيزبيا) الذي كنا عنده صباحًا..

لغة الإيماءات والنظرات: ألم أقل لكم أن تتركونا وشأننا؟

- «هل تعرفهما يا (ميخائيل)؟»

- «إنهما كانا في القرية صباحًا مع الصيدلي (يوليان)..».

هنا التفت لي (جوستاف) وبدأ يترجم ما قيل.. قلت له في نفاد صبر:

- «دعك من هذا.. كل هذا مفهوم.. ماذا ينوون عمله معنا؟»

- «لم يتفقوا بعد.. ظننتك فهمت هذا أيضًا..»

ثم همس في خطورة:

- «إنهم لا ينادون بعضهم بالأسماء العادية.. بل يستعملون ألفاظًا ونعوتًا مثل (شيطان الظلام) و(زهرة القبور) و(نهر النار).. بل إنهم يسمون القرية كلها باسم (إنفرنوس)»

(انفرنوس) هو الاسم اللاتيني للجحيم.. وهو مألوف لمن قرأ (الكوميديا الإلهية) للإيطالي (دانتي)...

بانت المرأة العجوز التي لا أستبعد أن تكون لعبت المساكة يومًا مع (خفرع).. وكانت تحمل في يدها كتابًا سميكًا مهترئ الصفحات لكنّ له هيبة كتب الصلوات، وعلى غلافة لمحت الرمز العتيد، الصليب المقلوب.. إذن فالأمر هكذا..

ورأيتها ترفع يدها اليسرى التي تشقق جلدها وتآكل.. قبضة مضمومة يبرز أول وآخر إصبع منها.. وهو الرمز العتيد الآخر الذي أعوذ بالله من تفسيره.. قبضة الإلحاد..

كانت تتكلم وتتكلم بصوت رفيع جهوري.. وأدركت أنها الكاهنة العظمى في هذا المجتمع الغريب..

قال (جوستاف) متابعًا كلامها جملة فجملة:

- «إنها تقول إننا مرغمان على الانضمام إلى هذا المجتمع، والتخلص من خطايانا للأبد.. إنها تسمي نفسها (الروح الكبرى)، وتقول إننا سنغدو أخوين من إخوة الدم في هذا الجمع.. لا توجد فرصة للخيار؛ لأن هناك سبيلًا واحدًا هو الموت.. تقول إن (المعلم الأكبر) قادم عن قريب.. عندها يندم الخطاة الذين لم يقاوموا كبرياءهم.. والذين تقلصت وجوههم اشمئزازًا عندما

لمس كأس الدم شفاههم، والذين أفرغوا أمعاءهم عندما طلب منهم التهام الفئران!»

واضح أن (جوستاف) مترجم ممتاز..

واضح أنه لم يختلق أية عبارة من خياله..

تأكدت من هذا حين قدموا لي الكاس المترع بالدم.. وحين رأيت الدعوة في عيونهم.. وحين سمعت (جوستاف) يقول:

- «إنهم ينتظرون منك أن تشرب!!»

❋ ❋ ❋

حكاية الروح الكبرى

تحكيها هي نفسها

- ١ -

قالت (إيرما كالسكا):

لم يعد من حقي أن أسترجع الماضي.. أو أذكر نفسي باسمي القديم قبل أن أنال كهنوت الدم؛ لكنني مضطرة لذلك ما دمت بصدد سرد القصة منذ بدايتها..

❋ ❋ ❋

هو - الذي يمشي في الظلال - يعلم أنني أقول هذا مرغمة..

هو.. المعلم الأكبر.. خريولسن.. كل هذا يعني الشيء ذاته.. وهو قد سمح لي

بالكلام.. لهذا أتكلم..

* * *

قبل الرؤيا كنت أمًّا لطفلين، وأرملة في الخمسين من عمري.. صحيح أنني أبدو في الثمانين لكل من يراني، لكنّ ما ذنبي؟ لقد تضافرت على شبابى نوائب الزمن وخطوبه، وتركت كل نائبة جرحًا لا يزول على وجهي.. حتى قيل إن خارطة الطرق في (رومانيا) مرسومة على ملامحي بدقة مذهلة!

أورثوذكسية متدينة، أقرأ في الإنجيل كل ليلة، وأشعل الشموع في الكنيسة، وأبكي أمام تمثال (مريم العذراء).. كان هذا قبل

الرؤيا طبعًا.. وقبل أن يتخذ مني هو - الذي يمشي في الظلال - كاهنته العظمي..
كان لي طفلان جميلان.. (إيرينا) المراهقة الحسناء، التي يحلم بها نصف شباب القرية، ويتمناها النصف الآخر.. و(فالستا) الطفلة التي ستكون (إيرينا) يومًا ما..
رباه! يا لها من حياة!
تربية طفلين دون دخل تقريبًا.. الفقر.. الفقر... كلما ازددت فقرًا، كلما ازددت انحناءً، وازداد وجهي تجعدًا، وخلا فمي من أية أسنان..

*   *   *

والآن نقف جوار النيران نرمق المتطفلين..

كانا رجلين من (بوخارست).. أحدهما تبدو عليه أمارات الثراء والثقة بالنفس.. أمّا الآخر فهو أوسم مخلوق وقعت عيناي عليه.. إنّه نحيل يضع العوينات مما يعطيه سمتًا مهذبًا متحضرًا.. وأصلع الرأس، وأنا أحب صلع الرأس في الرجال لأنّه يوحي بالنضج والنظافة..

لم يعد سني ولا منصبي يسمحان بالوقوع في الحب.. لكني لو فعلت لكان هذا المصري الجميل أول من أختار...

نعم هو مصري.. صاحبة قال إنّه طبيب مصري.. وقال عن نفسه إنّه صحافي كبير من (بوخارست)..

لا يهم هذا.. نحن لم نعد ننبهر بالمناصب الدنيوية..

إنهما سينضمان إلى الشاحبين الآن ما داما قد جاءا.. غير مجبرين، غير مخدوعين، غير مغرر بهما..

«بكامل إرادتهما الحرة جاءا» كما يقول مصاصو الدماء..

❋ ❋ ❋

هو - الذي يمشي في الظلال - اختارني ذات ليلة..

❋ ❋ ❋

لم تكن لي أية علاقة بالموضوع حتى شهر (مايو) الماضي..

كنت أقضي وقتي في تخليل البصل، وصنع السلال بغرض بيعها.. كما أنني كنت أخيط ثياب الأعراس مقابل أجر..

وكانت (إيرينا) تساعدني تارة وتتهرب مني تارة.. من العسير أن تقنع فتاة مراهقة بأن مسئولية البيت تمنعها من المرح، وزيارة أترابها، واللعب في المرج وصيد اليعاسيب، أو قطف الزهور كي تدسها خلف أذنها كما تفعل بنات (هاواي) في الصور...

الحق أن (إيرينا) كانت بارعة الحسن.. والفتاة المراهقة قد تكون عسيرة في تربيتها، لكنّ المراهقة الحسناء مستحيلة..

كنت بحاجة إلى رجل بجانبي.. رجل له عينان ينبعث الشرر منهما، وله (شخطة) ترتج لها جدران المنزل وقلب (إيرينا)..

ولم يكن هناك رجل يصلح سوى (بيلاسكو)..

(بيلاسكو) جاري الذي توفيت زوجته منذ عام.. وهو مدرس في مدرسة القرية.. أصلع الرأس نحيل.. أي أنه فتى الأحلام.. ومن الطبيعي جدًا أن يطلب يدي.. فهو أرمل وأنا أرملة.. وبيتانا متلاصقان.. ولديه ولد ولدي ابنتان..

لكن الأحمق لم يبد قط أية رغبة للزواج من أي نوع.. فقط كان يتردد على الدار مساء ليجلس ويثرثر ويشرب بعض (الروم)، ثم يقول:

- «إن الحياة القاسية يا (إيرما كالسكا).. كل هذه الوحدة...»

ويسكب ما بقي من القدح في حلقه.. وينهض..

فقط لاحظت في الآونة الأخيرة أنه يزداد شحوبًا..

كان يجيء داري ليلًا.. وفي كل ليلة كان يبدو أقرب إلى لون الليمونة الناضجة أكثر فأكثر..

سألته في ذات ليلة.. وأنا أرشف من شراب عطر الرائحة أهداه لي:

- «هل أنت مريض يا (بيلاسكو)؟»

بدت عليه الحيرة.. ثم سألني عن السبب.. قلت وأنا أعيد الكوب لموضعه:

- «يقولون إنك لم تعد تغادر دارك.. لم تعد تغادر غرفتك.. ثم هذا الشحوب.. وهذه الرائحة.. بحق (مريم العذراء) أشعر كأنك تتعفن حيًا!»

قال وهو يهز رأسه كمن يطرد خاطرة ما:

- «لا شيء من هذا يا (إيرما).. إنها الوحدة لا أكثر.. أحوالى سيئة وأشعر بأنني لست على ما يرام... أنت تعرفين أن الصحة والنظافة مرادفان للسعادة.. الاكتئاب يجعل المرء شاحبًا قليل الاستحمام..»

ورأيت الدمع في عينيه فربت على كتفه..

كان يرتجف.. ورفع عينيه نحوي.. وهمس:

- «هل الفتاتان هنا؟»
- «هما عند خالتهما هذا المساء..»
وقبل أن أفهم ما يحدث أنشب أسنانه في ساعدي! كان هذا آخر ما توقعت.. وأطلقت صرخة هائلة، لكنه كان قد أطبق على الساعد في عنف.. وسالت الدماء و...
ملحوظة د. (رفعت): نظرًا لأنني أكره العنف فقد حذفت وصف هذا المشهد الدموي - الذي يستغرق صفحة من حديث المرأة - وأكتفي بالقول بأن (بيلاسكو) امتص دماء (إيرما) بالكامل.. وأنها في البداية قاومت بعنف، ثم لم تعد تجد الأمر سيئًا إلى هذا الحد.. كان يقودها إلى نوعٍ من الخدر اللذيذ.. كأنها تخطو إلى النومِ بعد يوم من العناء..

تقول (إيرما كالسكا):
- «حين غبت عن الوعي كان صوت (بيلاسكو) الرخيم يتردد في ذهني، يقول ضاغطًا على مقاطعه:
«انت لن تموتي أي (إيرما كالسكا).. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها ستلفظين خطايا الماضي..»
وحين صحوت من نومي عرفت أنني صرت منهم..».

❋ ❋ ❋

يا للنور! يا للضوضاء؟
أنا لم أعد منكم يا حمقى.. إنني أقرب إلى شاعر مرهف الحس يبغى نظم قصيدة؛

لكنّ الغوغاء لا يريدون تركه في حاله...
كانوا يقرعون الباب على طيلة اليوم.. يتساءلون.. يضيئون الأنوار.. يتأملون وجهي..
لكني كنت أصرخ فيهم غاضبة.. دعوني وشأني.. أريد الجلوس في الظلام المقدس حتى يأتي الوعد..
وكانوا يقدمون لي طعامًا رديئًا جدًّا.. لكني كنت قد وصلت إلى حقيقة لم أسغها قط من قبل: إن لحم الفئران وخشاش الأرض ليسا بهذا السوء..
لم يأت (بيلاسكو) قط ليراني..
لكني كنت أسمع صوته طيلة الوقت في ذهني:

- «هو - الذي يمشي في الظلال - ينتظر.. ينتظر حتى نغدو كثيرين ونسود.. عندئذٍ نتحرك.. وعندها يغدو المجد لنا.. أمّا الآن فلنبق حذرين منطوين نتحين الفرص..»

كانت (إيرينا) تزورني وتسألني في لهفة:

- «أماه.. ماذا دهاك؟»

لكني كنت أبعدها عني في غلظة..

وقد جلبت لي في يوم من الأيام علبة من أقراص الحديد؛ ابتاعتها من الصيدلي المخبول (يوليان)، لكني لم أمسسها.. ليس فقر الدم هو ما أعانيه.. إنّه الجوع للدم ذاته!

نعم.. كنت ظامئة للدم.. ولم يكن ما ذقته منه كافيًا في الهوام التي أنجح في الظفر

بها، ولم أجرؤ قط على أن أطلب من (إيرينا) ذبح خنزير وجلب دمه لي..

كنت أتعذب.. وأتمزق، لكني تحاملت على نفسي أيامًا طويلة..

وكنت أعرف ما سيحدث.. لهذا أرسلت (فالستا) لتقيم عند خالتها.. وحاولت إقناع (إيرينا) البلهاء لكنّها أصرت على أن تظل معي، وأن تنفق على (اللايات) المعدودة التي حصلت عليها من خالتها..

وفي النهاية كان الظمأ قد بلغ بي أعتى مبلغ...

لهذا.. شربت دماء (إيرينا)..

* * *

حسن.. ثمّة رجل يُدعى (ميكيافللي) - ويبدو أنه روسي[2] - حكى لي القس عنه يومًا ما.. يبدو أنه قال (الغاية تبرر الوسيلة).. ولم أفهم معنى العبارة لكنّ القس قال لي إن المقصود بها: لو كانت أهدافك معقولة فمن الممكن أن تفعل أي شيء..

حسن.. أنا لم أعد أطيق القس ولا الكنيسة.. لكني أعترف له بأنه ثقفني كثيرًا.. وكانت هذه العبارة هي التبرير الذي وجدته حين أنشبت أسناني في عنق (إيرينا) في غرفتي المظلمة..

أنا أتحرك نحو هدف أسمى.. تحول مذهل.. تحول تهون معه التضحيات الصغرى، وعاطفة مثل عاطفة الأمومة..



وفى النهاية كان الظمأ قد بلغ بى أعتى مبلغ .. لهذا ..
شربت دماء (إيرينا) ..

وثمّة حيوانات تلتهم صغارها حين تجوع..
ما دام ذلك في اتجاه التقدم الطبيعي..
لكن (إيرينا) ماتت!
ماتت حقًّا، ولم تمر بالغفوة التي مررت أنا بها.. لم تصح ثانية حقًّا.. وأمضيت ساعات طويلة أصفعها محاولة جعلها تنهض.. ثم سمعت صوته (هو) يقول لي:
- «أنت قد تسرعت أيتها الروح الكبرى»
تساءلت في ذهول وأنا أحتضن طفلتي:
- «روح كبرى؟ من؟»
- «الروح الكبرى هي أنتِ.. لن تكون هناك من تدعى (إيرما كالسكا) بعد الآن.. بل أنت كاهنتنا العظمى.. وقد تسرعت كثيرًا..»
- «كـ... كيف تسرعت؟»

- «كان عليك أن تحقنيها بالإكسير قبل مص دمها.. والآن لم يعد من الممكن أن تعود للحياة أو تغدو منا.. لا تجزعي! فقط عليك أن تتخلصي من جثتها..»

- «و.. ولماذا أغدو الكاهنة العظمى؟»

- «لأنك قمت بالتضحية العظمى.. ابنتك!»

- «و.. مـ.. من أنت؟»

- «أنا (هو).. هو الذي يمشي في الظلال..»

* * *

- ٢ -

لم يكن عسيرًا أن أجر جثة (إيرينا) إلى غابة الصنوبر وأتركها هناك.. لحظة ضعف عابرة هزتني وأنا أتذكر كيف كانت طفلتي تهوى اللعب في هذه الغابة.. ثم تماسكت وعدت إلى داري تحت جناح الظلام...

وحين وجدوها جاءنى المأمور يخبرني بمأساتي..

كان هذا عند الظهر.. وأنا لا أطيق رؤية ضوء النهار، لكني سمعت قرعاتهم على الباب، وصوت رجاله ينادون اسمي العتيق.

تحاملت على نفسي وفتحت الباب.. ثم جعلتهم يدخلون إلى الدار المظلمة، لا يكادون يبصرون بعد ضوء الظهيرة الساطع..

وسمعت من يقول ملحوظة ما عن رائحة البيت الكريهة.. الروائح**!** إنهم ما زالوا يلاحظون الروائح.. أما أنا فأعتقد أن حاسة الشم لديَّ لم تعد متعلقة إلا بالدم.. هناك دم أم لا..

قال المأمور:

- «منذ متى اختفت (إيرينا) يا (إيرما)؟»

قلت وأنا أقف في الظلام:

- «منذ أسبوع أيها (القوميسير)..»

- «ولماذا لم تخبرينا؟»

- «لأنهّا تشاجرت معي وأعلنت أنها لن تعود.. مسألة عاطفيّة من سخافات المراهقة إياها.. ولكن لماذا تسأل؟»

تنهد وفي تردد قال:

- «لأننا وجدنا جثتها في غابة الصنوبر صباح اليوم!»

الآن صار على أن أصرخ وأولول..

أصرخ وأمزق شعري وألطم خدي..

ياه! لقد كان كل هذا مملًا.. لكني قمت به باعتباره من ضرورات مهمتي.. ويبدو أن أدائي كان رائعًا لأنّهم راحوا يواسونني ويقدمون لي أقداح الماء..

وكان من السهل بعد هذا أن أتظاهر بأن قدمي قد شلتا.. كان على أن أفعل هذا إذا أردت ألا أذهب للكنيسة لحضور تأبين

(إيرينا).. الحق أنني لم أعد أحتمل دور العبادة كلها..
جاءت خالة (إيرينا) كي ترعاني.. وخالة (إيرينا) هي أختي طبعًا.. لكني لم أكف عن اعتبارها امرأة متطفلة ما..
امرأة عجوز ثقيلة الظل تصر على مضايقتي، وتثرثر طيلة الوقت، وتسألني عن صحتي مائة مرة في الساعة..
كنت أعاملها بغلظة.. لكنّها كانت تمصمص بشفتيها طيلة الوقت، ولا تكف عن الإشفاق على..
والأسوأ أنها راحت تنظف الدار.. وتصر على أن تدخلها الشمس وأن تتخلص من رائحتها التي تقول إنها كريهة..
حسن.. كان لا بد أن تذهب..

* * *

وحين كنت أخلو لنفسى كان (هو) يزورني ليملي عليّ كتابه الخاص به.. كتابه الذي سيقتدي به أتباعه جميعًا...

وكنت أدون كل حرف في ورقة، حتى أجتمعت لديَّ ثلاثمائة ورقة قمت بتجليدها في كتاب، ورسمت عليه الصليب... لكنّ لا ككل صليب.. بل هو صليب مقلوب.. لا أدري السبب.. لكني وجدت نفسي مرغمة على رسمه.. وأطلقت على الكتاب اسم (إنفرنوس)...

تسألون عن محتوى الكتاب؟

إن هذا يثير الفضول.. لكني غير مخولة بأن أذكر منه حرفًا لأمثالكم من الخطاة الفانين.. ليس من حق غير الشاحبين أن يعرفوا اسرار (هو) العظمى..

أكتفي فقط بذكر (الإكسير).. والذي يصنع من أوراق نبات الـ (وولف بين).. وهو نبات له باع طويل في السحر، ويقول الفلاحون دومًا إن رائحته تخلق المذءوبين..

يبدو أن كثيرين سواي يعلمون سرّه، ومن بينهم (بيلاسكو) نفسه.. وهذا الإكسير هو الذي يمنع من تمتص دماؤه من أن يهلك... لم أكن أعرف شيئًا عن هذا حين مصصت دماء (إيرينا)..

أحيانًا أشعر براحة لأنني لم أكن أعرف.. فهي على الأقل تنعم براحتها الأبدية الآن في عناية إله رحيم..

لو كنت اعرف لصارت مثلي.. خادمة لـ (هو).. وأحيانًا أندم.. فقد فقد مجتمعنا فردًا.. وفردًا مهمًا...

المهم أنني تحايلت على خالة (إيرينا) حتى سقيتها كأسًا كاملة من الإكسير، ثم فعلت معها ما فعله (بيلاسكو) معي..

وكان المنظر غير مسبوق..

في البدء تهاوت جثتها الشاحبة الخالية من الدماء أمامي.. بعد جهد عنيف كلفني نابًا من أنيابي.. آخرها في الواقع..

ثم رأيتها تتكلم بصوت مبحوح..

ورأيت عينيها ترمقاني في ثبات..

قلت لها الكلمات الشهيرة:

- «أنت لن تموتي.. ستعيشين لتكوني من إخوة الدم.. وعندها تلفظين خطايا الماضي..»

ثم همست في أذنها:

- «(هو) - الذي يمشي في الظلال - يريدك...»

ومن ليلتها صارت الصديق الوحيد الذي يؤنس وحدتي..

لكن عددنا ازداد بعد حين..

صارت كل البيوت المجاورة منا..

وصرنا أقوى.. وامتلكنا الجرأة كي نجهر بحقيقتنا..

* * *

حكاية الشاحب الرابع

يحكيها هو بنفسه

- ١ -

قال (بيلاسكو):

(هو) - الذي يمشي في الظلال - أمرني أن أضم (إيرما كالسكا) أو ابنتها..

* * *

الحق أنني كنت ميالًا إلى تذوق دماء الفتاة.. فهي دماء غضة شابة ربما تبعث الحياة في وجودي المحتضر..

لكن ما باليد حيلة.. ومن العسير أن تجد كل ما تريد..

* * *

أنا مدرس في مدرسة القرية.. أرمل منذ فترة قصيرة.. ولي ابن في السادسة عشرة من عمره.. اسمه (كوثار)..

إن الحياة تمضي في القرى على غرار (هالماجيو) بشكل رتيب جدًا.. لا شيء يحدث.. يُمكنك أن تعرف أن الأمور ستمضى على هذا المنوال بعد عامين أو عشرة.. يُمكنك أن تحدس من سيتزوج من من المراهقين الذين تراهم في كل مكان.. يُمكنك أن تخمن أول الموتى في الفترة القادمة..

الحياة - حقًّا - رتيبة في (هالماجيو)..

لكننا منذ شهرين عرفنا الإثارة الحقيقية..

فبعد أن تغرب الشمس يبدأ المرح، وينتشر إخوة الدم في الشوارع يرقصون ويصخبون.. ونشعل النار العظمى التي تضيء لنا كل شيء.. ويغادر إخواننا بيوتهم بعد يوم طويل قضوه ينتظرون في الظلام تلك اللحظات..

هو ذا (إستبان) وهذا (بوريس) وتلك (هيلدا).. أو تلك هي أسماؤهم القديمة قبل أن يصيروا (شيطان الظلام) و(نهر النار) و(زهرة القبور).. أنا صار اسمي (الدم) وهو اسم جميل حقًّا..

- «كيف حالك يا (نهر النار)؟»
- «أسوأ من حالك يا (دم)..»

وفي هذا المجتمع صار لكل منا زوجة..

أنا زوج (إليصابات) التي صار اسمها (حدأة الصحراء).. صحيح أننا لا نرى بعضنا إلا ليلًا.. لكن تفاهمنا تام...

ويسرني هنا أن أقول إن (حداة الصحراء) تنتظر أول مولود في مجتمعنا الجديد.. أول طفل يولد شاحبًا.. وقد دنا الموعد جدًا..

حول النار نحتشد وتتلو عبارات الخضوع لـ (هو) ـ الذي يمشي في الظلال ـ الذي نرتقب خروجه من الكهف متى بلغ عددنا رقمًا معينًا..

ما هو هذا الرقم المبارك؟

لا أحد يعرف.. ربما كان ستين أو سبعين أو مائة.. وربما تتم هذه المعجزة اليوم بالذات..

لقد دأبنا على زيادة عددنا.. كلما وجدنا متطفلًا من جنوب القرية عندنا.. كنا نقبض عليه، ونرغمه على أن يكون منا..

متطفل اليوم هو الشاب (أنطونيسكو) إبن القصاب.. يبدو أنه قد تسلل ليلًا ليرى ما يحدث عندنا.. وكان يحمل خنجرًا ومشعلًا.. أنا أعرف أنه يحبّ (إيرينا كالسكا) ولم يستطع أن يتفهم موتها قط..

لكنه كان أحمق بما يكفي لأنّه رأى إبني (الكابوس) ـ أعني (كوثار) سابقًا ـ وحسب أن الشباب يفهم الشباب أكثر من سواه.. حاول أن يكلمه.. ناداه...

وكان (الكابوس) حويطًا بما يكفي.. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه في الكلام.. ثم على حين غرة أمسك معصميه بكلتا يديه،

وأطلق صرخة طويلة - صرختنا - فهرع الإخوة من كل حدب وصوب، وأحاطوا بالفتى بعصيهم ومداهم...

وكان الباقي معروفًا.. ربطنا قدميه وعلقناه في شجرة.. نسيت أن أقول إننا أرغمناه على شرب الإكسير.. كان يصرخ ويحاول أن يبصق ما انصب في فمه لكنّ الإعياء غلبه فجرع بضع جرعات..

وحين علقناه من قدميه كما في أوراق (التاروت) لم يفهم المراد منه..

دنت كاهنتنا وأحدثت الجرح إياه في وريد عنقه الودجي...

ثم رحنا نتناوب ملء الكئوس من الدم.. الدم الأحمر الفائر.. الذي يكفي لإطفاء ظمأ ثلاثين منا..

إن الدم سائل ساحر حقًّا.. كوب واحد يجدد نشاطك لمدة يومين.. ولا يوجد كوب



وكان (الكابوس) حويطًا بما يكفى .. إذ دنا من صاحبنا وتبسط معه فى الكلام ..

من أي مشروب في العالم له هذا التأثير..
لكنّ الحظ كان يحمل لنا مفاجآت باسمة أكثر..

لقد وجدنا غريبين متطفلين في دار (الدماء السوداء).. لقد تمكّن من القبض عليهما وحده بإرادة جديرة به...

وكان أحدهما يتكلم الرومانية وهو صحفي مكتنز فاخر المظهر من (بوخارست)، وأنا أمقت أهل (بوخارست) لأنّهم يعتبروننا نحن الفلاحين حمقى..

أما الآخر فلا أجد له وصفًا سوى أنه يشبه دودة (الإسكارس) في كتب التاريخ الطبيعي التي أشرحها للتلاميذ.. ويبدو أنه أجنبي..

كانا مذعورين يحاولان تفسير الموقف، ويبدو أن الصحفى كان يحاول تخويفنا بمنصبه وصلاته.. لكنّ الشيوعيين لن يرهبونا.. لا هم ولا الرأسماليون ولا أية قوة أخرى..

عندما نقرر المعاملة اللائقة بهذين سيبدأ المرح الحقيقي...

اقترح أحد الواقفين أن نستنزف دماءهما حالًا.. وأنا أمقت ضيق الأفق بشكل غير عادي... إن التكرار مقيت دائمًا..

لقد فرغنا من استنزاف دم (أنطونيسكو).. وهو ذا قد بدا يتحرك وهو متدل من الحبل... وقد بدت عليه أولى علامات الصحة: لم يعد الوضع المقلوب يضايقه.. إنّه قد اكتسب طبيعة الوطاويط التي تقضي

حياتها مقلوبة دون ضيق.. ثم إن جسده لم يعد يحوي دماء تتجمع في رأسه وتشعره بالاختناق والاحتقان..

أقول إن (أنطونيسكو) قد صار منا، ولشد ما أثارت صحوته الهلع في نفسي ضيفينا.. لقد أثار موته الذعر في نفسيهما.. لكنّ صحوته جعلتهما يوشكان على الموت بدورهما..

لم يعد هناك داعٍ لاستنزاف آخر هذه الليلة..

إن ضيفينا سيجدان كثيرًا من المرح في الكهف..

*   *   *

- ٢ -

كان (كوثار) - أو (الكابوس) - هو من قادني إلى إخوة الدم..

في البدء كان مراهقًا عاديًا يضحك من قلبه ويغني ويتشاجر ويحب، ثم بدأ التحول المعهود: صار شاحبًا.. وصار يفضل الجلوس وحيدًا في الظلام، وحوله تلك الرائحة العطنة التي صارت شعارنا..

وقد حسبته في البدء مصابًا بخلل نفسي من هذا الذي يعتري المراهقين، وأفضيت بمخاوفي لد. (ميخائيل) الذي جاء وفحصه برغمه.. وأعلن أنه مريض جدًا.. وكتب لي قائمة طويلة من المستحضرات

العلاجية التي تشرب أو تبلع أو تدهن أو تمص أو تشع أو تحقن..

لكن (كوثار) - لم يكن قد صار (الكابوس) وقتها ـ غضب جدًا عليّ بعد انصراف الطبيب.. وقال لي إن كل هذا شأن من شئونه، وهددني لو جعلت الأمر أكثر ذيوعًا بأن يقتلني..

الحق أننا لم نعتد (قلة الأدب) الأمريكية هذه في ريف (رومانيا)..

ربما سمح الآخرون لأنفسهم بذلك؛ لكنّ الأمر يختلف هاهنا.. إن الابن الوقح يصفع، وربما يُطرد لو أراد الأب..

وهكذا ضربته ضربًا لا بأس به.. وحبسته في غرفته، وهو ليس عقابًا حقيقيًا بالنسبة

له، هو الذي يقضي عشرين ساعة يوميًا وحده في حجرته..

وفي المساء دخلت حجرته، حيث كان جالسًا في الظلام لا يفعل أي شيء في الواقع..

جلست جواره وقلت له بصوت أبوي هادئ:

- «ها نحن ذان معًا.. صديقان يتساران.. قل لي ما يضايقك..»

قال لي وهو يخرج قنينة من جيب سترته:

- «كل ما هنالك هو أنني لا أشعر بأنني بخير.. صدقني.. هذا هو كل شيء.. لم أعد أتحمل أية ضوضاء من أي نوع..»

وقرب القنينة من فمه وأردف:

- «ولا الضوء.. ربما هي مسألة أعصاب كما تعلم..»
صحت وانا أمسك يده في عنف:
- «وهذا؟ هل هو خمر؟ هل تشرب يا (كوثار)؟»
هزّ رأسه وابتسم.. لمحت بسمته في الضوء الخافت وقال:
- «لا يا أبت.. إنّه مجرد منشط طبي.. ثق بي..»
ورأى نظرة الشك في عيني، فقرب القنينة من فمي وقال:
- «هلمّ ذقه.. لتكون مطمئنًا..»
لامست القنينة بشفتي وعيناي لا تفارقان وجهه..

حقا لم يكن ما بها خمرًا.. بل هو سائل غير معهود.. عطر الرائحة قليلًا.. له مذاق الزنجبيل لو أضيف له النعناع..

وكان هذا خطأ.. لقد تركت لقدمي أن تنزلقا إلى ذات الشرك..

ويبدو أنه كان جاثمًا فوق عنقي.. وبصعوبة عرفت أنه يمتص الدماء من وريدي المنتفخ.. وهي عملية مرهقة استغرقت ساعة أو أكثر.. لكنّها لم تكن سيئة على الإطلاق..

فقط سمعته يلهث هامسًا:

ـ «أنت لن تموت.. ستعيش لتكون من إخوة الدم.. وعندها تلفظ كل خطايا الماضي..»

ولم أفهم ما يقول وقتها.. لكني فهمته الآن بعد ما عشت حتى ضممت ستة غيري إلى إخوة الدم.. وكذلك فهمت عبارته التالية:
- «هو - الذي يمشي في الظلال - يريدك..»

* * *

الحق أنها كانت خبرة غير معتادة..
نحن في (رومانيا).. والكلام عن مصاصي الدماء يبدأ منذ أن يكون الطفل في مهده.. لكنّ ما حدث لم يكن مص دماء كما نعرفه.. كان استنزاف دماء لشربها.. ولم يمت أحدنا غير ثلاثة أيام بعدها يغادر قبره ليمارس مهنته.. ولم نكن خالدين حتمًا

لأن أحدنا مات بنوبة قلبيّة منذ أسابيع..
وإحدانا ـ كانت تدعى (إيزبيا) - ماتت في أثناء الولادة مع وليدها..
لكننا - وقد تزايد عددنا تدريجيًا - كنا نعرف أننا نشكل البذرة لنبتة ما.. نبتة عملاقة..
ما هو الغرض من وجودنا؟
لا ندري.. سل أية نبتة عن الغرض من وجودها، وانتظر أن تجيبك إجابة مقنعة..
لكنّ الروح الكبرى - كاهنتنا التي شرفت بضمها - جعلتنا نعرف أن لنا هدفًا واحدًا..
هو أن نكون موجودين حين يخرج هو ـ الذي يمشي في الظلال - من الكهف..
- «عندها سيهدي السلام الكواكب، ويتوارى كوكب المشتري مع المريخ،

ويصير القمر في المنزلة السابعة..»

ـ «ويكون هذا هو فجر برج الدلو..»

هذه الكلمات من مسرحيّة (شعر) تعبر بصدق عن آمالنا..

آمالنا التي لن نتركها للمتطفلين القادمين من (بوخارست)...

حتى ولو كان أحدهم يشبه دودة (الإسكارس)..

❋ ❋ ❋

حكاية الطبيب النحيل

يكملها هو بنفسه

قال د. (رفعت):
كان الكأس أمام شفتي.. ولم أكن أعرف ما سيحدث، لكنه حتمًا لن يتضمن أن أشرب هذا السائل الكريه.. فليقتلوني إذا أرادوا.. وكل ما أرجوه هو ألا يكونوا غليظي القلب إلى حد صب هذا الكأس في فمي عنوة..
هنا جاءت النجدة في صورة رجل نحيل أصلع الرأس، رفع يده في حزم.. وصاح قائلًا شيئًا ما..
دخلوا في جدل طويل لم أفهم منه حرفًا.. لكني كنت أرمق شيئًا معينًا في اهتمام.. إن الفتى المعلق من قدميه - والذي أفرغوا دمه أمامنا ـ يتحرك؟

ابتسامة شيطانية تتلاعب على شفتيه.. ثم يكشر عن أسنانه.. يفتح عينيه.. لحسن حظ (جوستاف) أنه لم ير هذه النظرة بالذات..

إنه حي... حي وسعيد.. كأنه ينعم بوضعه الطبيعي المثالي.. ذكرني بوطواط معلق يهضم ما التهمه من حبات العنب في رضا...

سمعت (جوستاف) يقول لي:

- «إن هذا الرجل..»

- «المعلق؟»

- «لا يا أحمق.. أعنى الأصلع.. يقول إنّه لا داعي لاستنزاف دمنا الليلة.. وقد اقترح أن يدخلونا الكهف على سبيل المرح!»

- «الكهف؟ مرح؟»

- «هذا ما قال..»

- «وما الموجود في الكهف؟»
- «لا أدري.. لكنه بالتأكيد أسوأ من تعليقنا من الأقدام، واستنزاف دمنا عن طريق أوردة العنق!»

أخيرًا بدأ القوم يتحمسون..

وعرفت أن فكرة الكهف قد راقت للجميع..

بدءوا يدفعوننا وهم يشكلون دائرة واسعة حولنا، قاصدين ذلك الكهف السخيف، عطن الرائحة..

قال (جوستاف) وهو يرمق وجوههم الشاحبة تلتمع في اللهب:

- «(رفعت).. إن الأمر يبدو كأنهم يقودوننا إلى نوعٍ من القربان الآدمي.. وأنا لا أحب هذا..»

قلت لاهثَا:

- «أمّا أنا فأعتقد أنهم يقودوننا إلى مقبرة.. وأنا أكره هذا!»

كان الكهف ينتظرنا..

فمه الفاغر المظلم يحمل عشرات الاحتمالات.. وعشرات الإجابات لأسئلة لم نسألها.. ولم نرغب قط في سؤالها..

ما الذي ينتظرنا هناك؟

* * *

في الكتيب القادم تسمع حكاية الشاحب الثالث (كوثار).. وتعرف السر وراء هذه اللعنة التي اجتاحت (هالماجيو)..

ربما تعرف أيضًا ـ لو كان هناك وقت ـ ما حدث لنا داخل الكهف.

د. (رفعت إسماعيل)

القاهرة

رقم *الإيداع:* ١٦٠٦

المطبعة

العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

أسطورة الشاحبين

ثمة أشياء غريبة في (هالماجيو) .. أشياء من التي لا تقال إلا همسًا جوار المدفأة ليلاً .. حينما تتأكد أن الأطفال ناموا .. وتستوثق من أن بابك موصد .. وأن الكلب لا ينبح في الجرن ؛ لأنه يشعر بشيء غريب .. إنها قصة عن (هو) - الذي يمشي في الظلال - وإخوة الدم وأعياد الخصوبة .. وكل الخزعبلات التي جاءت كي تبقى ..



د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم:
أسطورة دماء دراكيولا

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥١ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

ص
الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

Notes

[←1]

ترجمة لاسم Vlad the Impaler :

[←2]
ميكيافلي إيطالي.. لكننا لا نطالب مصاصة الدماء العجوز بأن تكون مثقفة!